الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصف

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٢ — ١٥ ربيع أول سنة ١٣٥٧ — ١٥ مايو سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

فهرس العدد

صفحة			
٤٠٢	ميمى	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ إبرهيم عبد القادر المازنى
٤٠٧	شجرة الكمثرى المسحورة .	للكاتب الاسبانى بوكانشو	بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج ...
٤١١	سوسن النورية	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ محمود بك خيرت . ...
٤١٩	ابن الحب	أقصوصة من التاريخ الاسلامى	بقلم الأستاذ على الطنطاوى .. ...
٤٣٠	الملك والدرويش	بقلم وافريد ستابلتيز	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة .. ...
٤٣٧	غيرة	للكاتب السويسرى سولومون جسنار	بقلم محمد عبد الفتاح محمد . ...
٤٤١	حاجى بابا فى انكلترا	تأليف جيمز موير	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار ...

ميمى

اقصوصة مصرية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

جلس « طلبة » فى القطار العائد به من مصيفه فى الاسكندرية يفكر فى « وردة » ، فما استطاعت الاسكندرية بمن حفلت بهن من الفتيات اللائى جئن من كل مدينة وقرية ليعرضن جمالهن وفتنتهن على شواطئ البحر أن تنسيه سحرها ودلها أو تصرفه عنها وتحوّل قلبه إلى سواها . وإن الاسكندرية لمفسدة أى مفسدة — كذلك جعل يقول لنفسه وهو يهتز فى مقعده من فرط السرعة التى يعدو بها القطار — ماذا يظن هؤلاء الآباء الذين يتركون بناتهم يتجردن على الشاطئ ، ويصبحن لاهن كاسيات ولاهن عاريات ؟

ولم يكن طلبة من الطراز القديم أو المحافظ ، فقد كان ابن عصره الذى لم يشهد سواه ، ولكنه كان فتى أكسبته حياته وعمله اتزاناً قلما يتاح فى مثل هذه السن ؛ فقد كان صيدلياً ، والصيدلى يرى كل صنوف الناس ، ولا يسمه وهو يستقبل الزبائن ويرحب بهم ويتلقى « أوامرهم » ويصغى إلى حديثهم وثرثرتهم فى أحيان كثيرة إلا أن ينظر ويفكر ويقارن ويقابل ، وإلا أن يقف على كثير مما يخفى على الشبان أمثاله فى أعمال أخرى ، وإلا أن يلم بحالات قلما تمر نظائرها بأنداده . وقد أفاد من عمله فى الصيدلة صبراً وحلماً وتساعاً وحكمة ومقداراً من « الحصانة » تمنع أن يغتر المرء بالظواهر . وتلك بعض ثمار المعرفة التى اكتسبها فى ذلك المرض الذى يسميه الناس : « الصيدلية » ولا يخطر لهم أنه يمكن أن يُرى فيها غير العقاقير

وخطر لطلبة والقطار ينهب به الأرض أن من الحماقة أن يتوهم الآباء أن عرض بناتهن على الشواطئ يعجل بتزويجهن . ورجه القطار وهو يفكر فى ذلك فكأنما رج ما فى رأسه أيضاً فعاد يسأل نفسه : « ولكن هل هم يعرضون بناتهم ليزوجوهن ؟ أليس الأصح أن يقول إن تيار الزمن جرفهم ، وإنهم لم يستطيعوا مقاومته ، فهم لا يعنون شيئاً ولا يريدون أمراً ، وإنما ينزلون على حكم التيار ؟ على أن المهم على كل حال أن هذا العرض يزيغ العين ، والرجل يستطيع بعد أن يرى كل هذا الجمال المتنوع المحشود أن يروض نفسه على الصبر على طعام واحد . وطبيعى أن يقنع بالفجلة وكسرة الخبز اليابسة من لم يجلس إلى الموائد المثقلة بألوان الآكال الشهية ، ولكنه إذا جرب هذه الطعوم المترية فإنه لا يكون آدمياً إذا ظل يعد الفجلة نعمة من الله ! »

وسأل نفسه مرة أخرى : « ولكن هل معنى هذا أن الأولى أن تُرد البنات عن حمامات البحر وما إليها ؟ » وهز رأسه وقال لنفسه : « مستحيل . ثم إن الحياة لا تطيب بذلك حتى لو تيسر ... كان يمكن أن تطيب لو أنا ظللنا لا نرى على الشاطئ كل هذه المفاتن ، ولكنا أكلنا من شجرة المعرفة فلا

قناعة لنا بشيء بعد الآن ، ولا سبيل إلى الصبر على الحرمان ... »

واعتدل فى مقعده وسأل نفسه هذا السؤال « إذا كان الزواج هو الغاية ... لا تقل الغاية ... فانه على كل حال ليس إلا واسطة . ولكن نقول إذا كان هذا الزواج هو النظام المقرر فأيهما خير للرجل المدرك المفكر ... أن يتزوج واحدة من أولئك اللواتى لا يخرجن إلى البحر فى ثياب الاستحمام ولا يعرفن السينما ، ولا يبرزن للرجال ، ولا يعرفن من الحياة إلا الأكل والكسوة والجلوس على الحشايا ، ولا تخشى عليهن الفتنة لأنهن لا يتعرضن لها ، أم أن يتزوج واحدة من هؤلاء المرحات ، الصابحات الوجوه ، البضات الأجسام ، الرشيقات القوام ، اللواتى يحسن الحديث والسمر ، ويعرفن كيف يُمتعن ويتمتعن ، ويجعلن الحياة كلها فرحة دائمة ، ونعيما مقيما ، ومتعة مستمرة ، لكثرة ما فيها من التنوع ؟

وهز رأسه مرة أخرى وقال : « مشكل والله ! وعقدة لا أعرف لها حلا ... فتلك الجاهلة لا تكون إلا مملة ، وإن كان المرء يسعه أن يطمئن وأن يسكن ، وتلك المتعلمة المدنية البرزة أحلى وأمتع ، فى أول الأمر على الأقل ، ولكن السكرة تذهب ، وتزول النشوة ، وتجىء الفكرة ، ويحتاج المرء إلى السكون والرضى والاطمئنان ... الراحة على العموم ... وأين الراحة مع الخفة والتقلقل الدائم والشك الذي لا سبيل إلا إليه ولا حيلة فيه ؟ »

وطال تفكيره فى هذا وما هو منه بسبيل ، ولم يجد فى هذا الراحة ، ولم يستطع أن يهتدى إلى رأى فيما عرض على نفسه ، فانتقل إلى « وردة » وشرع يتصورها على هواه . وكان يدرك وهو يفعل ذلك انه يُفيض عليها من خياله ، ولكنه كان يقول لنفسه ان الخيال أمتع من الحقيقة ، وإن الجمال الذى لا يحرك الخيال لا قيمة له ، وإن الجمال الحقيقى هو الذى يجدد نفسه فى خاطرك ، ويعرض عليك من صوره وفتنه ألوانا ومعانى لا ينضب لها معين . وهذه مزية وردة ، وإن كانت هذه أيضاً آفتها ، فانها زئبقية ... لا تستقر حقيقتها — إذا كانت لها حقيقة — ولا تستطيع أن تتناولها وتقول هذه هى فى يدى ... كلا ... مستحيل ...

وارتفعت لعينه وهو يفكر فى « زئبقية » وردة صورة « ميمى » الوديعة ... ميمى البتيمة التى لم يبق لها من الأهل سواه ، فهى فى بيته — مذجاءت بها أمه — كالأخت ، أو إذا شئت ، كالخادمة ، تقضى له حاجاته ، وتعد له أشياءه ، وتتعهد البيت ، وتدبر أموره ، فى سكون ومع الابتسام الدائم ، ومن غير تأفف أو ضجر ، ولا تطلب إلا أن يكون راضياً ناعم البال قرير العين ... أتراها تحبه ؟ ؟ إن هناك ما يشير إلى ذلك ويشى به ، ولكنها لا تقول شيئاً ، ولا تجترئ على أكثر من ابتسامة السرور حين يسرها ، ويخيل إليه أحياناً أنها كانت تبكى أو أن الدمع يتحير فى عينيها ، ولكنه لا يدرى ... لا يدرى ... ثم إنه لا يريد أن تحبه ، كلا ... فانه يحب غيرها ...

وجرى بباله البيت المشهور وهو يتناول حقيبته وينزل من القطار فى محطة القاهرة :

« جننا بليلى ، وهي جُنت بغيرنا
وأخرى بنا مجنونة لا نريدها »

فقال بصوت مسموع : « أعوذ بالله ! ما هذه السخافة ؟ قد تكون ميمى مجنونة بى ، وإنى لمجنون بوردة ، ولكن وردة على التحقيق لا تحب أحداً غيرى ... نعم لا يبدو أنها تحبنى كما أشتهى وأتمنى . ولكن من فضل الله أنها لا تحب سواى ... هذا شىء على كل حال ... يمكن أن أقتنع به الآن ...

ومع الارتياح ... ولكن من يدرى ... ؟ »

وساورته الشكوك وهو يشترى فى طريقه طاقة من الأزاهير البيضاء التى يعرف أن وردة تحبها ، وظلت تساوره وهو يدخل شقته ويلقى بالحقيبة ، ويتلقى تحية ميمى بفتور لا يعنيه . وقد سخط على نفسه وأوسعها تقريعاً وذماً ، وقال لها : « هذه وردة يشرق وجهها لك ، وتكاد تفتح ذراعيها ، وتبدو كأنها تريد أن تضمك إلى صدرها الناهد ... الحق أن صدرها جميل ... وأنت تقابلها بهذا الفتور ؟ ... إن هذه خسة : ماذا جنت الفتاة حتى تصدمها هذه الصدمة ؟ وتدفع فى صدرها بجُمع يدك ؟ آه صدرها ! ... الحق أنه جميل ... قدها كله جميل ، فيها لين ، تنساب كالماء الرقراق ... ثم إنها وديعة ، راضية ، حلوة الطبع ، لماعة العين دائماً ، أوه ميمى .. ميمى ؟ إنه يجب أن أفكر فى وردة ... »

وكانت ميمى فى هذه اللحظة تضع الورود فى الزهرية ، فزعق طلبة : « ماذا تصنعين ؟ »

قالت باستغراب : « أرتب الورد ، أليس ... »

ولم تتمها ، فقد انتزع منها الأزاهير وهو مقطب ولفها فى ورقها كما كانت ، وتمتم وهو يفعل ذلك : « ترتب الورد ! أتراها تظننى جئت به لأزين به بيتى ؟ » وقال بصوت عال : « دعيه هكذا ... إنه لوردة »

فأحست المسكينة بمثل شكة الخنجر ... يعود من الاسكندرية بعد خمسة عشر يوماً قضاها هناك ناسياً عنها ؛ ولا يذكرها بزهرة واحدة ، ومعه هذا « الحوض » كله ، يحتفظ به لوردة ! ولا يخطر له أن من الرحمة الواجبة ألا يخزها على هذا النحو ! ماذا كان عليه لو اتقى أن يجىء به إلى البيت ؟ ولكن .. »

ولم تسترسل فى هذه الخواطر المؤلمة ، فقد كان عليها أن تهيئ له ثياباً أخرى يلبسها ليزور وردة ! وإن ميمى لتعلم أن وردة مشغولة عنه بغيره ، وأنها لا تفكر فيه ، ولا تبالى أجاءها بهذه الأزهار الجميلة أم نسيها ولم يخطرها بباله . ولكن ميمى لا تستطيع أن تقول له هذا وإلا ظن بها الظنون

وأحست ميمى وهى تنفض لطلبة ثيابه التى يجب أن يرتديها بثورة نقمة على وردة ، وشعرت كأن وردة تخون طلبة لأنها مشغوفة بسواه . وصحيح أن وردة لا زوجته ولا خطيبته ، ولكن هذا لم يمنع ميمى أن تسخط على وردة وأن تشعر لها بكراهية شديدة يزيدها علما أنها غير محقة فيها

وخرج طلبة ، ومعه طاقة الزهر الأبيض ، وبقيت ميمى وحدها ، لا أنيس لها إلا خواطرها . نعم هناك أمه ، وأخته ، وخادمة ، ولكن ما أنسها بهؤلاء ؟ وهى مضطرة أن تتكلف أمامهن الابتسام وأن تتظاهر بغير ما تبطن ، وهذا بلاء آخر ...

ولم يطل غياب طلبة ، فقد عاد ، ومعه طاقة الزهر الأبيض التى خرج بها ، ففتحت له ميمى الباب وارتدت مذهولة .. أذهلها تجهمه ، وأذهلتها طاقة الزهر التى تتدلى بها يده ؛ فارتدت ولم تقل شيئاً ، وتركته يدخل وهو مطرق لا ينظر إليها ولا إلى شىء ، ويرمى بطاقة الزهر على المائدة ، ويذهب إلى غرفته ، ويرد بابه حتى لا يدخل عليه أو يزعجه أحد

وبعد قليل صفق ، فذهبت إليه أخته فردها وقال لها : « ابعثى إلىّ بميمى » . ولم يكن هذا مستغرباً فقد كانت ميمى هى الموكلة به فى الحقيقة ، وكانت أمه يسرها أن ترى ميمى تقوم له بحاجاته وتتكفل بأموره ، وكان رجاؤها أن يفطن ابنها إلى قيمة ميمى فيتخذها زوجة

وذهبت إليه ميمى فقال لها : « اجلسى ، واصدقينى »

قالت : وهى تجر كرسياً : « نعم »

قال : « وردة ... إنك تعرفينها كما أعرفها ، فلا

تخفى عنى شيئاً ... ما هى الحكاية ! »

قالت : « أى حكاية ؟ »

قال : « إن المرأة تعرف عن المرأة أكثر مما يستطيع أن يعرف الرجل . ثم إن النساء يتحدثن فيما بينهن بما لا يتيسر العلم به للرجال ، فأخبرينى ما هى حكاية وردة ؟ »

فكررت قولها : « أى حكاية ؟ »

قال : « ألا تريدين أن تخبرينى ؟ إذن سأعرف كل شىء وحدى » ونهض ليخرج ...

ولم تستطع ميمى أن تكتم ما بنفسها ، فحدثت أمه بما سألها عنه من خبر وردة ، وتركتها تتصرف كما تشاء . على أن الأمر لم يحتج إلى تصرف من الأم أو سواها ، فقد أراد طلبة أن يقف على جلية الخبر وأن يعرف من هذا الشاب الذى رآه خارجاً معها من بيتها يوم عاد — أى طلبة — من الاسكندرية ، وذهب إليها ليسلم عليها ويقدم لها الورود البيضاء التى تحبها وتؤثر جمالها على سواها من ضروب الزهر . وكان هو يهم بالنزول من الترام فى محطته أمام بيتها ، فلما رآها خارجة ومعها هذا الفتى الغريب الذى لم يره قط من قبل بقى على سلم الترام إلى المحطة التالية ، ثم عاد إلى بيته . وما خير أن يذهب إليها وهى خارجة ؟ ومع فتى ؟

وكان « طلبة » ممن يؤمنون بأن الخط المستقيم أقرب المسافات بين نقطتين ، فذهب إلى أبيها وسأله عن هذا الفتى من عسى أن يكون . وكان بين أسرة طلبة وأسرة وردة من الصلات الوثيقة القديمة ما يسمح له بمثل هذا الاستفسار الذى كان خليقاً أن يعد — لولا ذلك — فضولاً غير مقبول . وكانت وردة وحيدة أبيها ، وقد ماتت أمها ، فرق لبنته جداً ودلها تدليلاً شديداً . فقال الأب : « هذا حسنى ... خطيبها ... وعلى فكرة ... أظن أنه من الأوفق ... تعرف ما أعنى ... ولا مؤاخذة »

فهز طلبة رأسه وقال : « نعم أعرف ... يحسن بى أن أكف عن زيارتكم حتى لا أثير وساوس الخطيب ... ولكنى ياعمى من عسى أن يكون هذا الخطيب ؟ إنه طارئ ولا شك ، فانى أعرف كل معارفكم ، ولا أذكر أنى رأيته أو سمعت به وما غبت عنكم إلا خمسة عشر يوماً . أفى خمسة عشر يوماً يعرف وردة ، ويخطبها ، وينتهى الأمر ؟ »

قال : « ولم لا ؟ ؟ يوم واحد يكفى ما دمنا قد قد سألنا ووثقنا أنه شاب طيب حسن السيرة »

قال : « وهل سألت ياعمى ووثقت ؟ »

فقال الرجل بلهجة المتأفف : « ما هذه الأسئلة ؟ »

فقال طلبة وهو ينهض : « أنا أعرف أنك لا تستطيع أن تكذب ... وأستطيع أن أعرف أنك لم تسأل ولم تستوثق ، وإنما نابت عنك وردة فى هذا كله ... مبارك على كل حال ... وأستودعكم الله »

* * *

ومضت الأيام وطلبة يعالج نفسه ، ويروضها على الانصراف عن وردة ، واستطاع شيئاً فشيئاً أن يقنع نفسه بأن الخيرة فى الواقع ، وأن الزواج لا يكون مؤدياً إلى السعادة إذا كانت الفتاة مدللة كوردة كل هذا التدليل ، حتى لتخطب لنفسها من تشاء ، ولا يسع أباها إلا الموافقة . وعاد — شيئاً فشيئاً أيضاً — إلى ما كان يفكر فيه وهو عائد من الاسكندرية ، ويسأل نفسه عنه : « أى الفتاتين خير ؟ واحدة نشأت على الطاعة والعفة أم أخرى مدللة تعرف حمامات البحر والخروج مع الرجال ؟ » وزاد السؤال تحديداً فجعله هكذا : « أيهما خير لمثلى : فتاة وديعة كميمى تحبنى وتطيعنى ولا تعرف سواى ، أو تفكر فى غير واجباتها لى وإن كانت

تنقصها مظاهر الطراز الحديث ؟ أم أخرى كوردة تخطب لنفسها من تشاء ولايسع أباها إلا الموافقة ؟ »

وانتهى من هذا إلى التفكير الجدى الرزين فى ميمى ، ولم يخالجه شك فى أن ميمى ستفرح حين تعلم أن رأيه استقر على الزواج منها . وقد خاطب أمه فى الأمر ففرحت ، وحدث أخته ففرحت ، وكاد يحدث الخادمة ، وفى يقينه أنها لاشك ستفرح فقد ربيت — أى الخادمة — فى بيته

كل امرئ فرح إلا ميمي ، حين كلمها أمه . وفى قولنا إنها لم تفرح شئ من التساهل فى التعبير ، ذلك أنها فرحت لأن هذا هو الذى كانت تطمع فيه وتتطلع إليه ، ولكنها كانت تعلم أن طلبة يحب وردة ، وآلمها أن يشقى طلبة ، وأن تغدر به وتخونه وردة ، وسرها أنه لم يفز بها ، وحز فى نفسها أن طلبة إنما التفت إليها ورغب فيها لأن أمله فى ورده خاب . وكان هذا أوجع ماعانته من الاحساسات ، وتنازعتها الرغبة فى إرضاء حبها بالقبول والرغبة فى إرضاء كبريائها بالرفض ؛ وكانت أحياناً تميل إلى الرفض وهى تشتهى ويكاد قلبها يتمزق من فرط الحب ، ثم تميل إلى القبول ، ولكن الألم يمزق أعصابها ويتلفها ، فتبكى

وترى الأم والأخت هذا منها فتستغربان وتنكران هذا البكاء ، ويخطر لها تارة ان هذا بكاء السرور ، وتارة أخرى أن ميمى لا تريد طلبة زوجا لها ، ولكنها لا تستطيع أن ترفض لأنها يتيمة لا أهل لها ولا بيت إلا هذا ...

وكان هذا بعض ماخطر لميمى وقطع قلبها ، وزادها حيرة ، فهى إذا قبلت الزواج لا يسعها أن تنسى أن قلب طلبة مع وردة ، وإذا رفضت ، فقد قضت على حبها ووجب عليها في هذه الحالة أن تترك البيت ، ولكن إلى أين فى هذه الدنيا الطويلة العريضة الزاخرة بملايين الخلق ، والتى تضيق مع ذلك بفتاة واحدة ؟؟

وطال التردد ، ومضت الأيام ، والكل حائر ، حتى طلبة بدأ يستغرب ، وظن أن ميمى لا تريده ، وأنه كان مخطئاً فيما توهمه دليلا على ميلها إليه وتعلقها به ؛ وكان من فضل هذا أن صغا إليها بقلبه ، شيئاً فشيئاً أيضاً ... حتى كانت ليلة فناداها ، فلما دخلت عليه صارحها بما نابت عنه أمه قبل ذلك فى الكلام فيه

فقالت له : « لا ... إنك تحب وردة ، فأنا لست لك »

قال : « أهو هذا ؟ » وسرته هذه الغيرة وأيقن من حب الفتاة وقال : « اسمعى يا ميمى : لقد كنت أتوهم أنى أحب وردة ، ولكن المرء قلما يعرف نفسه . ولو أنى كنت أحبها بالمعنى الصحيح لما استطعت أن أسلوها بهذه السرعة . وقد كنت أعمى ... الدرة تحت عينى وأنا لا أراها ... »

فقاطعته : « لأنك لم تكن ترى إلا وردة »

قال : « نعم » فلما خلت منها حياتى استطعت أن أنتفع بعينى . ومن واجبى أن أشكر الله ، فلو لم أتعلق بوردة لما استطعت أن أفطن إلى الدرة التى كنت ذاهلا عنها ... وإذا كنت تحبيننى كما أعتقد وأرجو ، فان من واجبك أن تحمدى أنى افتتنت بوردة أياماً ، فكانت هذه الفتنة سبيل المعرفة ووسيلة الهداية ... أليس كذلك ياميمى ؟ »

وأراد قلب ميمى أن تقتنع ، فاقتنعت ، ولم تندم قط بعد ذلك على أنها أطاعت قلبها ولم تطع كبرياءها . وقد كان من الممكن أن يكون الأمر على نقيض ذلك ، ولكن طلبة كان صادقاً حين قال إن فتنته كانت سبيل المعرفة ، وإنه عرف نفسه بعد أن ضل قليلا .

ابراهيم عبد القادر المازنى

شجرة الكمثرى المسحورة

للكاتب الشهير بوكاتشو

للأستاذ محمد كامل حجاج

كان بمدينة أرجوس اليونان نبيل تقدمت به السن ، فأراد أن يبحث له عن زوج تكون له عوناً على شيخوخته ، فتزوج من ليديا وكانت من أسرة عظيمة جميلة محبوبة . كان الرجل غنياً جداً ينفق بسخاء ؛ وكان مولعاً بالصيد ؛ وكان له عدد كبير من الكلاب والصقور والخدم . وكان من بين حاشيته شاب حسن الوجه أنيق الهندام يعمل كل ما يطلب منه بمهارة وسرعة ، فكان موضع ثقة سيده

شغفت ربة البيت بهذا الشاب ، فكان لا يهدأ بالها إلا إذا رأته أو تحادثت معه . ولقد زاد حبها ضراماً فلم تقو على كبحه ، وصممت أن تفاتحه به . وكان من بين خدمها امرأة تدعى لسك تميل إليها وتثق بها ، فقالت لها ذات يوم : « إن ماصنعتِه معي من الجميل وتعلقك بي يشهدان بطاعتك واحتفاظك بالأسرار ، وآمل ألا تبوحي لأي فرد كان بما سأسره إليك . إنني فتية قوية كما ترين ، لا ينقصني شيء من الجمال والمال ، ولو كان زوجي من سني أو كنا متماثلين في المزاج لأرضى رغباتي . وأعترف لك بأنني لست عدوة لنفسي حتى أبحث عما لا أجده عند زوجي . وما وجد الزواج إلا للتمتع بلذات الحب التي حرمت منها . وقد وقعت عيناي على بيروس ليحل محل زوجي من هذه الوجهة ؟ وهو شاب شريف محبوب . ولقد رأيت أنه أجدر من غيره . ولقد تيمني حبه وأصبحت لا أفكر إلا فيه ، وإن لم أتمتع بحبه فإنني أموت كمداً . وأظن أنك لا تحجمين عن مساعدتي . فعرفيه بالطريقة التي ترين أنها مناسبة بما أكنه له من العواطف المتأججة ، واجتهدي في إقناعه بالمجيء إليّ عند ما أدعوه

طمأنت الخادم سيدتها ووعدتها بتنفيذ رغبتها ، ورأت فرصة سانحة لمخاطبة بيروس ، وكان ذلك في نفس اليوم ، فأسرت إليه بما دار بينهما من الحديث فدهش الفتى من هذه المفاجأة مع أنه لم يلحظ شيئاً من ذلك قبل هذا اليوم ، وخاف أن يكون هذا شركا منصوباً لاختباره فقال لها : « إنني لا أقتنع بصدق ما تقولين ، ولا أظن سيدتي تكلفك بهذه المهمة . وإن كانت أرسلتك حقاً فلا أظن ذلك إلا مزاحاً . وإني أرعى عهد سيدي فلا أسمه بهذه الاهانة ، فلا تكلفي نفسك مشقة مجادلتي في هذا الموضوع مرة أخرى . فأفهمته لسك بقسوة رفضه وقالت له : « مهما كان ذلك يضايقك فانني لن أتأخر في إخبارك بما تكلفني به سيدتي . وقصارى القول أرجو أن تكون بصيراً حكيما »

ولما علمت السيدة ليديا جواب بيروس فضلت الموت . وبعد بضعة أيام خاطبت خادمها في حبها المتأجج فقالت لها : « إن الشجرة لا تقطع بضربة واحدة . ويجب أن تعيدي الكرة مع بيروس الذي

يريد أن يكون مخلصاً لسيده . ترقبي الفرص المناسبة لتصوري له فرط غرامي وتباريح آلامي ، فليس من فائدتك ولا من فائدتي أن تهملي هذا الموضوع فانك تجازفين بحياة سيدتك

فعزت الخادم سيدتها ووعدتها بأنها ستحاول إقناعه بكل الوسائل . ثم ذهبت إلى بيروس فوجدته معتدل المزاج مسروراً فقالت له : « لقد فاتحتك منذ بضعة أيام وقلت لك إن النار اشتعلت فى فؤاد سيدتى وإن استمررت فى رفضك فانك ستخاطر بصحتها وحياتها، ولا تكن عديم الشعور أمام آلامها . أى فخر أن تكون محبوباً من سيدة ذات شأن كهذه ! ترو فى أمرك فستصبح فى مأمن من الفقر، وسيكون لك أفخر السلاح وأجود الخيل وأجمل الثياب وأغلى الحلى بخلاف الذهب والفضة . وستقابلك اليوم بذراعين مفتوحتين ، فلا تنزع ذراعيك منهما إن كنت لا تريد أن تكون لها عدواً أو تصبح فقيراً معدماً تتخبط فى دياجير البؤس والفقر . إنك تضحكني حينما أفكر فى أوهامك وخزعبلاتك

فكر بيروس طويلا وتأمل فى كلام لسك وقال لها : « إننى طوع أمرها إن كانت تقنعنى بحسن نيتها لأننى أعلم طباع زوجها . ولربما اتفق الاثنان على أن تتصنع لى الحب لتختبر أمانتى ؛ ولدى وسيلة إن هى نفذتها اطمأنت إليها وسلمت لها قيادى، وهى أن تقتل باشق زوجها فى حضوره ، وتنزع خصلة من شعر ذقنه وترسلها إلىّ ، وتخلع سناً من أجمل أسنانه » وقد وجدت الخادم وسيدتها أن هذه الشروط الثلاثة لا يمكن أداؤها ولكن الحب لا يعدم الوسائل للحصول على رغباته . فأرسلت إلى بيروس تنبئه بقبول هذه الشروط . ومادمت تظن أن سيدك حكيم بصير بالأمور كثير الشكوك فسأريك كيف أخدعه على مرآى منه وأجعله يظن أن ما شاهده لم يكن إلا وهماً . دهش بيروس مما قالته سيدته وانتظر بفارغ الصبر طريقة التنفيذ

وفى ذات يوم أولم زوجها وليمة فاخرة لأصدقائه فأخذت زوجته الباشق ولوت عنقه أمام بيروس وجميع الحاضرين ، فصرخ زوجها قائلا ماذا عملت؟

فلم ترد عليه والتفتت إلى النبلاء الحاضرين وقالت : « انني انتقمت من هذا الباشق لأنه سبب لى كثيراً من الآلام مما لا يمكنكم أن تتصوروه ، فطالما أبعد عنى زوجى إذ يأخذه ويخرج للصيد قبل طلوع الشمس كل يوم تقريباً ، وقد صممت من زمن على قتل هذا الطائر ، ولكننى انتظرت هذه الفرصة السانحة لأشهدكم أكنت محقة فى عملى أم لا ؟ فظن الحضور أن الزوجة ما أقدمت على هذا العمل الفظيع إلا لشدة تعلقها بزوجها وطفقوا يضحكون . ثم التفتوا إلى زوجها وقد كاد يتميز من الغيظ وقالوا له : « أتفضل هذا الطائر على زوجك ؟ ولقد أحسنت بأن تخلصت من مزاحها . ولما دخلت الزوج إلى غرفتها تمادى الحضور فى مزاحهم حتى أن نيكوسترات فارقه حزنه وطفق يضحك مثلهم من هذا الانتقام الوحيد فى بابه

وقد استبشر بيروس من تنفيذ الشرط الأول وغرق فى بحار أمانيه

وبعد أيام كانت الزوج تداعب زوجها وكان متهللا مستبشراً فرأت الفرصة سانحة لتنفيذ الشرط الثانى فجعلت تدلله وتمانقه ثم نزعت خصلة من ذقنه فتألم الرجل أيما ألم وغضب وقال لها فكرى ماذا تعملين ياسيدتى ؟ فقالت له : « أتغتاظ ياسيدى من خمس أو ست شعرات وأنا لم أغضب حينما جررتنى

من شعرى منذ هنيهة ؟ وقد أرسلت الخصلة فى نفس اليوم الى بيروس

والشرط الثالث هو بلا شك أصعب الشروط ، ولكنه لا يصعب على العشاق ذوى العقول الراجحة . وكان لزوجها حاجبان من أسرتين عظيمتين أحدهما يشرف على شرابه والآخر على طعامه ، فأوهمتهما سيدتهما أنهما أبخران وأوصتهما بأن يبعدا رأسهما إلى الوراء حينما يقدمان إلى سيدها شيئاً ففعلا بوصية سيدتهما

وبعد بضعة أيام قالت الحسناء لزوجها : ألم تلاحظ سحنة حاجبيك حينما يقدمان إليك شيئاً ؟

— نعم لاحظت وقد أردت أن أسألهما عن السبب

— لقد لاحظت ذلك من زمن ، ولكنى خشيت أن أفاتحك فى الأمر . والآن قد لاحظ ذلك غيرى فقد رأيت أن أحذرك ، ولا أعلم سبب ذلك ؛ وإني أصارحك بأن رائحة فمك كريهة جداً ، وربما كان ذلك من سن نخرها السوس . ثم اصطحبته إلى الكوة وفتحت فمه ثم قالت له إن سنك منخورة ومتعفنة ، وإن خلعتها أبعدت الضرر عن أسنانك الأخرى .

— سأبحث فى طلب الجراح ليقلعها

— إن هؤلاء كالجلادين ولا يستدعى الأمر حضورهم وسأخلعها أنا بنفسى دون أن أحدث لك ألماً . ثم أخرجت الخدم ولم تترك إلا السك وأوصدت الباب ، ثم أضجعته وجعلت رأسه فى حجر الخادم لتمسك به لئلا يتحرك ثم فتحت فمه وخلعت أجمل أسنانه بشكل عنيف تركه يصرخ من الألم ولبث هنيهة كالمغشى عليه . وفى هذه الأثناء أخفت السن الجميلة التى خلعتها وأبدلتها بأخرى نخرة متعفنة ثم قدمتها له قائلة : « انظر إلى السن التى احتفظت بها طوال هذه المدة ! ومن المحقق أنها لو تركت أفسدت جميع أسنانك . وقد نزف الجرح كثيراً من الدم ، ثم شرب أكسيراً مقوياً وارتمى على سريره كالميت

ثم أرسلت زوجه السن إلى بيروس دون أن تضيع شيئاً من الوقت . فاطمأن لها وقال إنه طوع إشارتها .

كانت الحسناء لا تألو جهداً فى إظهار حبها ؛ وكانت تعد الساعات كالسنين ولم يبق عليها إلا إرضاء حبها على مرأى من زوجها ، وأخبرت لسك بيروس بالدور الذى سيلعبه . ثم تصنعت المرض ، وذهب بعد الظهر لمقابلة سيدته ، وفى هذا الميعاد يجلس رب البيت مع زوجه . ولما رأت الاثنين مجتمعين أظهرت رغبتها فى استنشاق الهواء فى الحديقة ورجتهما أن يقوداها إلى ، فأسندها زوجها من جهة وبيروس من الأخرى وذهبا بها إلى شجرة كمثرى وجلس الثلاثة على بساط جميل من الخضرة . وبعد آونة اشتهت السيدة أن تأكل من الكمثرى فرجت بيروس أن يتسلق الشجرة ويقطف بعض الثمار الناضجة فأطاع وصعد وتصنع أنه رأى سيده يداعب ويعانق زوجه وصاح : ما هذا يا سيدى ؟ وكيف تسول لك نفسك أن تعمل هذا فى حضورى ؟ وأنت يا سيدتي أما تخجلين من مثل هذا اللعب ؟ كفى ، فان هذه الأمور لا تجرى أمام الناس . أليس الليل طويلا ؟ هل خرجتما إلى الحديقة لأجل هذه الأعمال ؟ ألم تكن عندكم غرف وأسرة كافية ولائقة ؟ فقالت المرأة لزوجها : ماذا يعنى بهذا القول ؟ هل فقد حجاه ؟

— لا يا سيدتى فإني لست بمجنون . إنى أرى جيداً ما أراه . ثم قال له الزوج بعد ما ضحك من قوله : « إنك تحلم حقاً »

— إننى لا أحلم مطلقاً .

ثم قالت زوجته : ربما تراءى له مايقول

— تأكدى من قولى يا سيدتى فلست واهماً

— إنزل إذن !

— ولما نزل قال إنى أراك الآن منفصلا عن سيدتى وبعيداً عنها

— إنك تحلم يا مسكين ، لأنى لم أبرح مكانى

ثم قال بيروس: ربما كانت هذه الشجرة مسحورة

فأراد الزوج أن يتحقق بنفسه من هذه المسألة ليتأكد إن كانت الشجرة مسحورة . فصعد بدوره، وما كاد يستوى فوق أغصانها حتى قام بيروس وزوجه بتمثيل دورهما من عبث وعناق

— ماذا تصنعين يا سيدتى ؟ ! وأنت يا بيروس أتخدم سيدك بهذه الصفة ؟

ثم أسرع فى النزول فرجع العاشقان كل منهما إلى مكانه والتزما السكون والحشمة

— ما هذا يا سيدتي ، أتقترفين هذه الفضائح أمام عينى ؟ وأنت أيها الوغد ... فقاطعه بيروس :

« إنى أعترف أنكما كنتما حكيمين عند ما صعدت على الشجرة. والذي ظننت أنى رأيته لم يكن إلا سحراً . والذى يكمل إقناعى أن سيدى ظن أنه رآني شيئاً لم يكن

— لا تحاول أن تعتذر فما رأيته لم يكن سحراً ولكنه حقيقة . ثم قالت امرأته إنه مجنون مثل بيروس . وأظن أنك قادر أن تتصور مثل هذه التصورات على حسابى ، وإن كان الأمر كذلك ، فانى أثور

ثم قال بيروس : « أتهين سيدتي بمثل هذا الكلام، وهى مثال الاستقامة والعفة؟ ثم قامت الزوجة متصنعة الغضب لتضلل زوجها الأبله وهي تقول :

— أتظن أننى بعد هذه الأعوام الطوال أتجرأ على اقتراف هذه الفضائح على مشهد منك ؟ وتأكد أننى إذا كنت أريد شيئاً من هذا القبيل لا أعدم الوسائل لارتكابها دون أن تشعر . وإذا كانت كل هذه المصائب من هذه الشجرة المسحورة فانى لا أريد أن تؤذينى بعد هذا أو تضر امرأة غيرى . ثم التفتت إلى بيروس وقالت له : « أحضر فأساً واقطع هذه الشجرة واحرقها » فصدع بالأمر . ثم التفتت إلى زوجها وقالت له : « وحيث أنى أرى الآن عدوة فضيلتى ممدودة على الثرى، فانى أعفو عنك وأسامحك وأوصيك من الآن فصاعداً أن تكون عندك فكرة أحسن من تلك عن امرأتك التى تحبك أكثر مما تستحق ألف مرة . ولقد سر الزوج أن رأى عقيلته تعفو عنه واعتذر لبيروس عما فرط منه من الشك ودخل الثلاثة القصر مغتبطين مسرورين

وبهذه الطريقة خدعت المرأة زوجها وخانته وفضحته . ومن هذا اليوم عاش بيروس مع سيدته بدون كلفة ينعم معها بلذات الحب بحرية أوسع من حريته حينما كان تحت شجرة الكمثرى

محمد كامل صيام

سوسن النورية

للأستاذ محمود دياب خيرت

جرّنا الحديث فى بعض ليالى سمرنا إلى طائفة من الناس لا تتصور المرأة وتنفر من ذكرها لأنها فى نظرها شيطان . وقد احتدم حولها الجدل وتشعبت الآراء حتى صاح أحدنا وكان يسمع ولا يشترك فى الحديث :

أراكم قسوتم عليها وأسرفتم ، مع أن الله حين خلق آدم خلق حواء إلى جانبه ليطيب بها ولتسكن نفسه إليها . أما أنها شيطان فقد يكون فى بعض النساء شياطين ، وكذلك فى بعض الرجال ، والانسان يحمل فى مطاوى نفسه الخير والشر معاً ؛ فإذا رجح أحدهما كان ملكاً أو شيطاناً . ولولا ذلك لما جاءت الشرائع بتعديل نسبتى الخير والشر بين الناس

على أنى لا أتصور كيف يستغنى رجل كائناً من كان عن المرأة وقد ركّز الله فى كليهما الشهوة ليصونا كيانهما وليتحقق بقاء النوع . إننا نحسّ الحاجة إلى المرأة كما نحس الحاجة إلى الطعام والشراب . إلا أن من الناس من يهيم بها هياماً فلا يملك الصبر عنها كأنهم يحمل معدته فوق ما تطيق فتتخم . كما أن منهم من ينظر إليها كوسيلة وقتية من وسائل الاستمتاع حتى إذا بلغ غرضه منها زهد فيها — ولكنهم جميعاً لن يجدوا مفراً منها وإلا كانوا شاذين على الطبيعة ، لأن حاجة الرجل إلى المرأة وحاجتها إليه من بعض نواميس الغريزة التى لا تخضع لسلطان

واقد عالج هذا الموضوع كثير من الكتاب انتهوا فيه إلى الحد الذى ذكرته. ومع ذلك ألم يقرأ أحدكم قصة تايس ؟

قلنا وما هى قصتها ؟ فقال :

إن هذه الفتاة ابنة خمّار وثنى لم يُعن بها ، حتى إذا آنست (مرهوا) العجوز فى حنجرتها مرونة وفى قوامها ليناً أقبلت عليها تعلمها الغناء والرقص ، فخرجت زهرة ناضرة وخليعة خلاّبة ، أقامت فى أنطاكية وإسكندرية دولة للشهوة خدامها الأمراء والحكام ، وفجّرت فيها بحراً للفسوق تموج لجته بالنضار تطؤه بقدميها اللتين ما عرفتا غير أوحال الفقر . وظل هذا شأنها : كأساً مترعة تطوف بها يد الليالى على الشفاه التى أعطشها الهوى حتى بلغ بافنوس الناسك مدينة اسكندر الأكبر فقام فى نفسه أن يصدها عن سبيل الغواية ويفتح قلبها إلى دين الله

ومن أعجب الأشياء أن هذه الفتاة الهيفاء الناعمة المتحكمة فى كل ذى سلطان نفذت إلى نفسها التى تغلغلت الشهوة فيها أنوارُ الهداية فهان عليها أن تتبعه وأن تحرق قصرها وما ضم من متاع ونعيم حتى لا يبقى أمام عينيها أثر فاتن من ماضيها

أما ذلك الناسك فكأنما أفرغ فيها كل ما وعت نفسه من هدى وتقوى ، حتى إذا وجد الشيطان عنده مرعىً خصيباً نفخ فيه من روحه غوايته فأشعل قلبه بهوى تلك الصالحة ، وهكذا

هداها ولكنه ضل ومات خاسراً . والشهوة الثائرة قد تعصف بالناسك كما تردّ تقوى الله الضالين إلى حظيرة الهدى

ويلوح أن أناتول فرانس واضع هذه القصة أراد بهذه المقابلة بين الهدى والضلال فى نفسين متنافرتين أن يضرب لنا مثلاً على أن محاربة الرهبان نفوسهم لقتل ما غرسه تكوينهم فيها من الشهوة إنما هى خروج على الطبيعة البشرية التى لا يُقهر سلطانها

نعم إن هذه الشهوة كانت أكثر تمكناً فى نفسها منها فيه ، وله من صلاحه ونسكه رادع ولها من ماضيها المضطرب مُغرٍ ؛ إلا أنها فى الواقع سئمت معدة حواسها تكرار هذا اللون من طعام الشهوة فعافته . ولذلك كان انتقالها إلى نور الهداية طبيعياً ؛ وكذلك يافنوس الذي ظل طول حياته يحارب شهوته ويضغط عليها حتى انفجرت ؛ فقد كان نزوله على حكم الغريزة طبيعياً أيضاً

وعند ذلك صاح أحدنا : وما قولك فى أخينا الحلو وهو مع حُسن صورته وشبابه وميسرته يمقت المرأة مقتاً ، حتى أنه ليستثقل أن يمرّ ذكرها بسمعه . بل إنه ليغادر المجلس الذى تُذكر فيه . وربما كان هذا هو الذى هيّأه إلى الاندماج فى الدراويش ومشايخ الطرق فانقطع عنا . فاستمر في حديثه قائلا إن هذا لا يغيّر من القاعدة التى ذكرتها . وانما تعرض أحياناً احداث الدهر للانسان وتصدمه فى بعض خصائص عقله فيقوم بين ذاكرته وبينها سدٌّ . إذ لكل عاطفة تجيش فينا ويشعر بها مخّنا مكانٌ بين تلافيفه قد يتأثر بمثل هذه الأحداث فتفقد هذه العاطفة دون أن نفقد ما جاورها . وإنى لأعرف محامياً فى مصر كان علماً من أعلامها صادفته ظروف قاسية أصبح على أثرها يجهل القراءة والكتابة كأنه لم يتعلمهما . بل إنه كان لا يذكر اسمه ولا يعرف كيف يكتبه . وهذه مسألة ثابتة من مسائل الطب الشرعى . فمن يدريك أن بعض هذه الظروف وقعت لصاحبك وكان سببها المرأة . بل من يدريك أن المرأة أيضاً قد تهدم فى يوم من الأيام هذا الهوس الطائفى الذى تمكّن منه وصرفه عن العمل النافع الذى خلقنا الله له ؟

وعند ذلك طرق أسماعنا وقع أقدام تقترب منا ثم دخل علينا حسن أفندى الحلو نفسه وهو يصيح : على شرط ألا تتعرّضوا لذكر المرأة . فضحكنا وأخذنا نحيّيه ونعتب عليه لانقطاعه وقد لفّ حول طربوشه عمامة خفيفة ترك ذؤابتها تتدلى على إحدي كتفيه . وكانت أصابعه تمرّ على حبات سبحته حتى إذا ما فرغ قال : والله لقد هزنى الشوق فاستأذنت إخوانى الليلة لأزوركم

كم كنت أودّ لو أنكم أخذتم عهداً مثلى فكنتم تقطعون الليل والنهار بالعبادة بدلا من هذا الهذيان الذى أنتم فيه . إنكم تجهلون مبلغ حلاوة الأيمان بالتوجه إلى الله والفناء فيه . لا تبحثوا عنه فى المساجد أو غيرها ولكن ابحثوا عنه فى بواطنكم . استمعوا إلى الصوت الذى ينادیكم بين جنوبكم . وليكن لكم قاض من أنفسكم هو الضمير ، ورادع يحول بينكم وبين الزيغ هو خشية الله . ثم إياكم أن تغفلوا عن ذكره فانه بذكر الله تطمئن القلوب . انى أصبحت أحتقر هذا الوجود الفانى وزخرف هذه الحياة الكاذب . أشعر وأنا فى حضرة الله كأنى ملك أسرح فى ملكوته وأسبح فى سمواته . أصبحت

أحسّ أنني لم أعد مادة بل معنًى . لا يشغلني عنه شاغل من أمور الدنيا ولا يستهويني بريق ضلالها وباطلها . على أنني لم أبلغ هذه المرتبة إلا بعد جهاد عنيف مع حواسي ، وحرب طويلة بيني وبين نفسي. والحمد لله على أنها ماتت . لقد ماتت . إنها ماتت . الله أكبر الله أكبر : لا إله إلا الله ..

وكان يردّد ذلك بصوت عال ، وقد أخذ يدور في الغرفة وجسمه ينتفض وبصره زائغ ، ثم سقط وقد غاب عن صوابه وتصلبت أطرافه ... فأسرعنا إليه ننفخ وجهه بالماء والخل وندلكه بالكحول ونحرك أطرافه برفق ، حتى إذا عاد إلى صوابه وفتح عينيه تملكه الغضب وأخذ يصيح : لم أيقظتموني ؟ لمَ لم تذروني وشأني ؟ إنني كنت في الحضرة القدسية ، وقد ارتفعت من دوني أستارها وغمرتني أنوارها ... والله لا ضمّني وإياكم مجلس . ثم انفلت من بيننا وصدى تكبيره وتهليله يصل إلى أسماعنا ثم يضعف شيئاً فشيئاً حتى انقطع

* * *

وكان حسن افندي يملك غير أطيانه قصراً في الزمالك أعده لأسرته ، ومنزلا بالجيزة يطل على ترعة السواحل قريباً من محطة السكة الحديدية ، وهو قديم شيده أجداده ، وكان يقيم به ويستقبل في فنائه الفسيح إخوانه في الطريقة ، فكان في أغلب الليالي وبخاصة في ليالي الحضرة يموج بهم وتدوي أصواتهم في أركانه بالصلوات والأذكار

على أنه للترويح عن نفسه كان في كل أسبوع يستقلّ عقب صلاة العصر ترام الأهرام إلى كازينو مدينة الجيزة ، حتى إذا استراح به بعض الوقت صعد إلى الصحراء يستنشق هواءها قليلاً ثم يعود

وفي إحدى تلك المرات بعد ذلك الحادث الذي وقع له عند أصدقائه أمسى عليه الليل وكان الهواء رطباً عليلا والقمر قد برز من جانب الأفق ينشر على الصحراء غلالة رقيقة من نور هادئ لطيف ، فطاب له السير أمامه على غير وجهة . وكان كلما ابتعد عن الأهرام لاحت أشباحها من خلفه كالخيام الجبارة تشرف على فضاء هذه الصحراء التي مرت عليها القرون وأشرق في ربوعها العلم والبأس والحكمة من عهد الملوك الأقدمين . وعند ذلك يفكر في عظمتها وعظمة من شيدوها . ولكنه لا يكاد يرفع بصره إلى السماء وإلى هذا القمر الذي يسبح فيها من ملايين السنين حتى تلوح له ضئيلة حقيرة في جانب عظمة الله وقدرته . وتأخذه هزة ساحرة فينطلق لسانه بالتكبير ، وكأن الأهرام من مضخمات الصوت ترجع صدى صوته عالياً يدوي في أجواء هذا الفضاء

وكان في أثناء سيره تعثر قدماه بعظام أوفر طولاً وحجماً من عظام الانسان فيذهب إلى أنها من بقايا الجمال النافقة

وعند ذلك ينتقل بخاطره إلى هذا الحيوان العجيب فهو ساكن رابط الجأش على عكس الخيول يقطع لجج الصحارى التي لا تنتهي بغير أن يقف ودون أن يأكل أو يشرب . لا يؤثر فيه التعب أو أنه يتحمله صابراً . وإذا مرض كتم مرضه لا يبديه وقائده الذي يسمع من بعيد زئير الوحوش وصهيل الخيول وأصوات الناس لا يسمع وهو على قيد خطوة منه غير شهيقه وزفيره دون شكوى أو أنين ، حتى إذا أفهكه الجهد وغلبه الألم وأوهى جلده الحرمان وشعر بأنه موف على الهلاك هوى إلى الأرض ومد

عنقه فوق الرمل ثم أغمض جفنيه مستسلماً لمصيره

كان حسن يلمس عظمة الله فى السماء وشموسها والأرض وما فوقها وما في جوفها وما فى نفسه وما هو دونها وهو يقول :

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ولقد سرقه جمال الطبيعة وسحرها فكان يسير أمامه لايلوى على شيء . حتى إذا ابتعد عن الأهرام وأحس التعب فكر فى العودة لولا أن صوت مزمار (أرغول) طرق أذنيه وهو يظهر ويختفى فى تموجات الريح ، وكأنه أنة حزين تشق سكون الليل ، فقام فى نفسه أن يقصده فلعله حفلة ذكر قامت فى وسط الصحراء ، وتحت قبة السماء الصافية بعيدة عن ملاهى المدينة وشرورها

وأخيراً بلغ مكان الصوت فإذا به صورة مصغرة من قرية متنقلة متواضعة تتكون من ستة أخبية من الشعر على مسافات متقاربة وقد انتثر من حولها فرسان وبعض حمير وعدد من خراف ومعز غير قرد وكلب كان ينبح عند قدومه . وعلى مسافة غير بعيدة عربة كبيرة يظهر أنها معدة للنقل

ولما دنا من أهلها حياهم فنهضوا لتحيته ثم أعدوا له فروآ غزير الصوف جلس عليه . أما رئيسهم وهو شيخ أبيض اللحية طاعن فى السن فصاح ليعدوا له القهوة . وكانت البقعة تموج بالرجال والنساء والأطفال يستمعون إلى صوت المزمار ، كما أن فتاة حلوة القسمات فى العشرين من عمرها كانت ترقص على صوته ، فلما وقع بصرها عليه فرت لتختفى خلف تلك الأخبية

— شرفت يا حضرة الأفندى

— الله يحفظك . لعلى لا أكون ثقلت عليكم . ولكنى سمعت صوت مزماركم عند الأهرام فشغفنى فجئت

— أهلاً وسهلاً ! يا مرحباً يا مرحبا !

— وهل هنا مقامكم داعماً ؟

وعند ذلك ضحك الشيخ وقال :

— كلا يا سيدى . إننا قوم رحّل نطوى الأرض ولا نقيم حيثما نحط إلا مقدار ما نأخذ قسطنا من الراحة . إنك ترى هنالك وسائل عيشنا نطرق الحديد ونطلى النحاس . ومن أولادنا من يحسن السير فوق الحبال المشدودة والوثب والدوران فى الهواء وغير ذلك من الألعاب البهلوانية كما أن منا من يطوف بهذا القرد وذلك الجحش أزقة القرى التى نستقر فى ضواحيها . على أن من نسائنا أيضاً من يجدن قراءة الخطوط بالودع ...

— بالودع ؟ ... أنتم إذن ... ؟

— قلها يا سيدي ولا تخف ... إننا من النوَر ؛ من هؤلاء الذين يصب أهل المدن عليهم صواعق احتقارهم ومقتهم ، والله وحده عليم بما تنطوى عليه نفوسنا من الوداعة والأنصاف ، ورعاية الجميل ؛ لانقبل الضيم ولذلك ليس لنا وطن يأوينا ويقيدنا ، ونهيم على وجوهنا فى طلب الرزق طليقين لأننا نعشق الحرية ونقدسها . أما سخط أهل الحواضر علينا فلأن فريقاً من الناس — وليسوا منا — يعبثون ويسرقون تحت ستار هذا الاسم الذى يضم طوائف النور جميعاً فى الشرق وفى الغرب ...

— وفى الغرب ... ؟

— نعم وربما أدهشك أننى أجيد اللغة التركية وأتكلم الاسبانية قليلا لأنى طفت فى شبابى بالأندلس وبالأناضول واختلطت بالنور المتجولين

فيهما . بل ربما أدهشك أني أتكلم بلغة عربية لاعيب فيها لأني حفظت القرآن صغيراً وقرأت الكفراوى والأشمونى بالأزهر ، بل إن ابنتى لتقرأ وتكتب لأنى علمتها . ولو لم يمت أبى لكان لى اليوم شأن آخر . وهكذا اضطررت إلى أن أخلفه على هذه القافلة

وعند ذلك انطلقت من خلف الأخبية صرخة شقت الفضاء لفتت الشيخ ومن معه وإذا بسوسن ابنته (وهى تلك الفتاة التى كانت ترقص) تعدو حتى ارتمت فى حجر أبيها وهى تقول : ألم أقل لك وله إنه لم يعد زوجى ؟ ثم انهمات دموعها فأخذ يلاطفها ويداعب خديها بأصابعه النحيلة ويقول : نعم ياسوسن لقد طلقته فلم يعد له بك صلة . طيبى نفساً واقصدى إلى الخباء فنامى ، وعند ذلك مسحت دموعها بطرف ثوبها وصدعت بأمره . أما هو فنادى على ذلك الزوج (واسمه برعى) وأنبه وحذره من الاستمرار فى غوايته وإلاّ طرده . فتراجع مخذولا حزيناً ثم اختفى . وبعد ذلك التفت الشيخ إلى ضيفه وكأنه أدرك ما يتردد فى نفسه فقال : إن الزواج عندنا سهل يا سيدى يكفى فيه رضى الطرفين وشاهدان منا

— حسناً ، ولكن هذا الطلاق ... ؟

— والطلاق عندنا حق لها . ألم تجز الشريعة أن تكون العصمة بيد الزوجة ؟ لذلك كان جائزاً في طائفتنا التى نشأت على المساواة والحرية . وهكذا لا يتحكم الزوج فى امرأته وهو يرى نفسه مهدداً بهذا الحق فيجتهد أن يصون علاقته معها بالاحسان والحب !

— وإذا كرهها أو كرهته ؟

طبيعى عندئذ أن يستعمل كلٌّ حقه ، فأنت لا تتصور كيف يطيب الزواج عند نفسين يقوم بينهما سد من الكراهية والبغض

وكان حسن افندى يتألم فى نفسه ويستغفر الله فى سره ، ولكنه مع ذلك أكبر هذا الرجل وأعجب به فنهض وهو يقول : ليت يتيسر لى الاجتماع بك مرة أخرى . ومع ذلك فلمَ لا تشرّفنى أنت بزيارتك ... ثم دلّه على منزله وحيّا . وكان الشيخ قد أعد له إحدى الفرسين واثنين من رجاله يرافقانه ولكن كم كانت دهشته لما بلغ الكازينو وقد رأى سوسن .. أمامه !

* * *

إذن هى لم تنم كما أوصاها أبوها . ولعلها كانت أيضاً تنصت إلى ما دار بينهما من الحديث . ولكن ما الذى دفع بها إلى تعقبه ؟ لعلها أرادت أن تمتّع عينيها بسحر ذلك الليل الفاتن ؟ ولكنها كانت تنعم به أيضاً وهى إلى جانب أبيها . ومع ذلك فقد كانت وهو يصعد إلى عربة الترام واجمة مشدوهة تكاد عيناها تفلتان ما حبسته فيهما من الدمع ، وتكاد صرخة الألم المكتومة فى صدرها تنطلق من شفتيها

ومرت به كذلك حادثة برعى معها وانصرافه ذليلا من لدن حضرة أبيها ، ولكنه كان يكره المرأة ويجهل معنى الحب ومعنى العذاب فيه ، فما كان يشعر بما شعر به ذلك الفتى من الحزن ولا بما كانت تحسه من النشوة وقد أصبح فؤادها طليقاً

كانت هذه الخواطر تتزاحم فى نفسه على أثر وصوله عند منتصف الليل إلى داره . ولكن التعب الذى عاناه كان فوق احتماله فانحدر إلى فراشه واستسلم للنوم

وكان حسن أفندى يحرص على أداء الفروض

فى أوقاتها ولا سيما صلاة الفجر . ولكنه لما استيقظ كان النهار قد ولّى ودخل الليل ، وهو مع ذلك لا يستطيع الحركة محطما خائراً كأنه يرزح تحت حمل ثقيل ، وكانت أعصابه مشدودة وخواطره مفككة . على أنه نهض أخيراً وصعد إلى سطح الدار فرآى القمر يبدو قرصه عند حدود الأفق ولكنه لم يأبه له وهو الذى حين رآه بالأمس انتقلت به نفسه إلى قدرة الله وعظمته ، ثم مدّ بصره إلى الغرب فإذا بالأهرام تلوح أشباحها الشامخة من بعيد ، فتذكّر الليلة الماضية ورحلته إلى تلك القافلة وتذكر ذلك الزمّار الذى كان يعزف على نقرات الدف وتلك الصبية التى كانت ترقص كأنها عروس الصحراء

وعند ذلك انبسطت نفسه واستقرت خواطره وأحس دبيباً يجرى فى جسمه ، ونشوة تتمشى فى مفاصله ، وهو لا يهتدى إلى سبب ذلك . ولكنه يعود فيذكر تلك الفتاة الجميلة الرشيقة الليّنة فلا يشعر نحوها بتلك الكراهية التى تناولت فى عينيه كل بنات حواء . بل إنه كان يجد فيها دليلا ناطقاً بعظمة الله . وهكذا ينتقل بتلك العظمة من الكون بأسره إلى تلك الفتاة التى أصبحت شغله يراها إذا نام وإذا استيقظ وإذا صلى وإذا سبح ، وهو على كل حال سعيد راض ما دام أنها صارت وسيلته إلى الاتصال بالله ...

غير أنه يعود فيذكرها وهى ترقص ، وقدها يتثنى كالخيزرانة وردفاها يترجرجان كأنهما الموج ، ونهداها يطلان من فتحة قميصها كأنهما هرمان صغيران ، ثم يتدرج إلى عينيها وما تشعانه من سحر الفتنة ، وإلى أنفها الحلو الدقيق ، وشفتيها القرمزيتين الشهيتين ، وابتسامتها التى يبتسم الوجود كله فيها فينزه طرف خياله فى محاسنها ويؤمن بالله وعظمته فى صنعه . ولكنه يكون قد انتقل بها هذه المرة من صفاء الروح إلى كثافة المادة

ثم يذكرها حين لحقت به وهو يهم بالعودة والدموع حيرى فى عينيها وهى حزينة خاشعة لأنها أعجبت به ومال قلبها إليه ، فيشعر كأنها أخذت تهبط رويداً رويداً إلى أعماق نفسه . ولكنه يذكر أيضاً موقف ذلك الفتى اليائس معها وما أصابه من الانكسار والذلة عندها فيقول : سبحان الذى أذله بها وأذلها بى . ولكنه يعود فيخيل إليه أن شيخه الذى عاهده على التقوى عند رأسه ينظر إليه شزراً ويؤنبه على ما فرط فى حق الله فينتبه مذعوراً وقد انتفض جسمه وضلت نظراته ، ويدرك أن الشيطان إنما يوسوس له ليخرجه من رحمة الله كما أخرج آدم من جنته فيعود باللوم على نفسه الأمارة بالسوء ويسارع إلى البكاء والندم والاستغفار

وظل حسن افندى على هذا أياماً ينساها ثم يحن إليها ، ويصرف نفسه عنها ثم يعود إلى ذكرها ، كأنها حمى متقطعة تذهب وتعود ، وكأن لصورتها مداً وجزراً فلا تكاد تنحسر عن خياله حتى تطغى عليه إلى أن جاء يوم دخلت عليه فيه وهى تتخطر كالغصن فانفرجت أساريره وأشرق وجهه وقد مد إليها ساعديه ليضمها إلى صدره وهو يقول : تعالى يامستودع شقائى ونعيمى ، وياخيال يقظتى وحلمى ، لمَ أخلف أبوك وعده فلم يزرنى ؟

قالت : لقد انتقلنا إلى مقربة منك . أنظر . ثم أخذته إلى نافذة قبلية تطل على فضاء استقرت القافلة فى وسطه ، ثم قالت : ولكننا لن يطول بنا المقام هنا فقد عزم أبى على الرحيل مع الصبح غداً ؛ ولهذا

أسرعت إليك فقد لا أراك بعد ذلك ... ولكنها حدقت فيه كأنها تتحسس ما يجيش فى صدره وقد حدثته نفسه أن يخالسها قبلة فسبقته إليها وعند ذلك طوّقها بساعده وضمّها إلى صدره فدبت حرارة جسمها الدافئ فيه واستيقظت الشهوة المكبوتة فى نفسه وقد توترت أعصابه واحتقن وجهه واتسعت حدقتاه وتلاحقت أنفاسه فحملها إلى منضدة قريبة وقد أخذ العراك العنيف يصطرع بين فجوره وتقواه حتى تغلب شيطانه فهمّ بها ، ولكنها دفعته بساقيها إلى بعيد ، ثم قفزت إلى مقربة من الباب تضحك بملء فيها وتقول : لقد أخطأ حسابك فما كنا نحن بنات النور لنؤخذ غصباً ، ولكن إذا كنت إلى هذا الحد تحبني فلم لا تتزوج بى ؟

— فقال :

رضيت يا سوسن وستكونين هنا ملكة على عرش قلبي ، وصاحبة الأمر والنهى فى هذه الدار وفى كل ما تملك يدى ، وستغرقين بعد الذى أنت فيه فى الديباج والذهب والحلى ...

ولكنها عند ذلك أشاحت بوجهها عنه قائلة : مالى ولكل هذا الذي ذكرت ؟ إننى لن أغيّر هذه الأسمال التى علىّ ولن أستعيض عن هذا العقد بغيره وإن كان من الخرز ، ولا عن هذا القرط وهذه الدمالج بسواها وإن كانت من النحاس . لقد درجنا على القناعة . حسبنا بالشمس والهواء والحرية نعيما نمرح فيه ، ومع ذلك فان بينى وبينك من فوارق البداوة والحضارة سداً ... إلا إذا نزلت على ديننا وعشت معنا كأنك منا . ولكنك لن تفعل فخير لك ولى إذن أن ننسى ما فات . ثم انطلقت نحو الباب ...

... خرجت بغير أن تتردد أو تلتفت قوية عزيزة وهي التى ليلة تعقّبته كانت تفيض عيناها بالدمع وملامحها بالأسى خائرة ذليلة

ولا ريب أنها كانت تحبّه وتتهالك عليه وقد فرغ قلبها من برعى . والطبيعة تنفر من الفراغ ، فقلبها لن يعيش بغير الحب ؛ ولا يفتأ عاصراً به لأنه غذاؤه وجنّته

على أنها لم تكرهه أيضاً ساعة غادرته على تلك الصورة . وإنما وجدت نفسها بين دافعين من حب تمكن منها وتقاليد ورثتها واستقرت فى دمها . ولو أنها كانت من غير بنات النور لاحتفظت بحبه ولسخرت من تلك التقاليد القاسية الجافة وأمامها من متاع الدنيا ضياع وقصور وحلى ومال وترف ونعيم ، ولكنها آثرت على كل ذلك أسمالها البالية وحليها الرخيص الكاذب . بل إنها عافت نفسها أن تتزوج من غير قبيلتها بفتى لا يحمل فى نفسه وفى ذمه عاداتها وتقاليدها . وكذلك هان عليها ذلك الحب ونعيمه في سبيل رعايتها والقيام عليها

ولو أن حسن أفندى كان تأثر خطواتها عند رحيلها لرآى كيف أنها أسرعت إلى خباء أبيها وارتمت عند ركن منه تتململ وتئن وعيناها تسكبان الدموع السخينة وصدرها يرتفع وينخفض تحت تأثير أنفاسها المتسارعة الحارة ، ولعلم إلى أى حد هو عزيز على نفسها ، وإلى أى حد هى تحبه وتجود بحياتها فى رضاه . ولكنها هان عليها أن تحطم هناءها بيدها على أن تكفر بتلك التقاليد

أما هو فكان عند انصرافها حائراً ذاهلا وقد صدمه شرطها إذ يستحيل عليه أن يخضع له أو يفكر فيه؟ وله هو أيضاً من كرامة تقاليده ما يقف

ما يقف حائلا بينه وبين الاسترسال فى هذا الحب . والتقاليد عقيدة كالدين من خرج عليها كان كالمرتد . ولذلك حمد الله على أن وقف بهما الأمر عند هذا القدر وعلى أن قافلتها سوف لا تقيم أكثر من سواد ليلة ثم ترحل فلا يعود يفكر فيها ولا يلبث أن ينساها

وقد كان من أسباب الترفيه عنه أن تلك الليلة كانت من ليالى الحضرة وقد أقبل إخوانه فانخرط فيهم وأخذوا يذكرون الله ويتلون الأوراد ويرتلون دلائل الخيرات . ثم انتصبوا للذكر فما كاد يرتفع صوت الناى ويغنى المنشد : يامليح اللمى وحلو الثنى . حتى انتقل خاطره إلى الصحراء ينصت إلى صوت ذلك الأرغول وهو يثير الحنين . وينظر إلى تلك الفتاة وهى تملأ عينيه بسحر تأودها وتثنيها . وعند ذلك ذكر ما كان من أمرها معه فصرخ صرخة هزت المكان وسقط على أثرها بغير وعى فنقلوه إلى غرفته ثم انصرفوا وهم يهللون ويكبرون لأن روحه الصالحة النقية فازت بالحظوة عند الله وتجلت عليها أنوار السماء ...

ولم تلبث هذه الغشية قليلا حتى أفاق فأخذ يبكى كالطفل وقد أدرك أن حبها قد تمكن منه وأن علته بها أصبحت بحيث لا ينفع فيها طب ولا يصرفها عنه صلاح أو تقوى . وعند ذلك انتقل إلى تلك النافذة فإذا بالسكون شاملاً وبالخيام التى كانت تموج بالحركة ساكنة هاجعة فيحدق فيها كأنه يتبين أيها تحوى تلك الفاسية التى نعم جفناها بالنوم وهو بعيد عنه

ولكن لم يواصل التفكير فيها وقد انقطع كل ما بينهما ، ولم لا يحاول النوم هو أيضاً فيضع به حداً لهواجسه وعذابه ؟ وهكذا عاد فانطرح فوق سريره وغلبه سلطان النوم ، ولكنه كان نوماً قلقاً مضطرباً حتى استيقظ فجأة عند الفجر على ضوضاء وجلبة من جانب ذلك الفضاء فأسرع إلى النافذة ولكنه لم يجد للأخبية أثرا . ورأى العربة تتهيأ للرحيل يتقدمها أفراد القافلة ومن خلفها شبح لم يكن غير شبح سوسن لأنها كانت تتلفت إلى جهته كأنها تتزود منه وتودعه ، فطارت نفسه جزعا واندفع كالسهم إلى الطريق . ثم أخذ يعدو وينادى حتى لحق بها ...

« القاهرة » محمود ضيرت

مؤلفات
الأستاذ محمد كامل حجاج

٤٠ بلاغة العرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة العشبية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

من التاريخ الإسلامي

ابن الحب

للأستاذ علي الطنطاوي

(الطائف) ... تلك القرية المسحورة التي سارت ذات يوم — كما تروى الأساطير[1] — سارت من ربوع الشام بينابيعها وجداولها وبساتينها ورياضها وزهرها وثمرها فطافت حول الكعبة ، ثم تسلقت الجبال حتى استقرت في أعالي جبل (غزوان) ، وهجمت على سرير من السحاب حالمة بالسهول والأنهار والنعمة والخصب ، لتستيقظ مع الفجر فتصنع العظماء والقادة ، وتقذف بهم إلى الدنيا الواسعة ...

(الطائف) ... مدينة الحجاج ...

* * *

نامت (الطائف) في تلك الليلة الساكرة القمراء ولفّها الليل بغلالة رقيقة ، ينفذ من خلالها شعاع القمر فيبدي محاسنها الفاتنة ، ويحسر عن بيوتها المختفية بين الأشجار كأنها أسراب من العشاق قد تغلغلت في هذه البساتين ، لتفيء إلى عزلة سعيدة ، تنعم فيها بذكرى اللقاء الماضي ، وتحلم بلقاء جديد .. وأوى الزراع إلى بيوتهم فناموا بين أهليهم ، كما نام الرعاة إثر نهار حافل بالتجوال الفاتن في هذه الجبال الكاسية بالعشب والزهر ، ولم يبق في المدينة عين ساهرة ... إلا عين سيد غريب يذكره هذا الليل الساجي ، وهذا البدر المطلّ ، بلده وحبيبه فيؤرّقه الشوق ، فهو يطوف بهذه المرابع ويده على قلبه ... وعيوناً أخرى خلال هذه البيوت البعيدة التي تسكن فيها الرذيلة وراء هذه الأضواء الكليلة التي ترتجف من الخجل ، وهي تضرب بأشعتها تائهة وسط الفضاء حيث يجلس على العتبات فتيات بائسات يعرضن في استحياء أجساداً عارية تطفح بالشهوة ... ينتظرن عابراً يسوقه القدر إليهن فيمنحه اللذة ، ويطعمنه من لحمهنّ ... ليعطيهن دراهم يحملنها إلى أسيادهن الذين يكرهونهن على البغاء ، ولا يكون نصيبهن بعد ذلك إلا أرغفة من الخبز معجونة بالدم والشرف والوحل ...

تلك هي سنة قوم لم يتأدبوا بعد بأدب الاسلام !

فلما مال ميزان الليل ، وغلبهن التعب ، ولم يطرقهن طارق ، تسللن إلى بيوتهن فنمن على فرش العار ، إلى الصباح ، ليستقبلن من يقذف به القدر اليهن من الرجال ... ولم يبق إلا فتاة صغيرة ، تنظر إلى السماء بعينين زرقاوين بلون السماء ، تفيضان بالطهر ... رغم أنهما في وجه بغيّ ، ولها فم صغير حلو ينطق بالصفاء من غير أن تتحرك شفتاه الرقيقتان ، وكأن هذا الفم وردة من ورد الجنان الخالدة ، غير أنها لا تذوى ولا تذبل ، وأنها من لحم ودم ، وأنها تشمّ بالفم ، وتلمس بالشفاه ... وأنف إغريقي جميل كأنه أنف فينوس ، وشعر أشقر متموج يبرق

(١) راجع (الياقوت) في (معجم البلدان)

تحت أشعة القمر كبريق الذهب ، وجسم أبيض لدن ، له لون العاج ، ولين الحرير ، وسحر الحب ، وفعل الخمر ... فهي وردة نمت في غير أرضها فزادت إلى جمالها جمال الندرة ، وهي ملك هبط من سمائه فوقع في هذه البقعة الممتلئة بالرجس . ولو أن للحياة أسلوبنا نحن البشر وتفكيرنا لكان مكان هذه الفتاة بين ذراعي أم تضمها إلى صدرها الفياض بالتضحية والاخلاص ، أو زوج يذيقها الحبّ والوفاء ، ويكتم سرّ هذا الجمال أن يفشو ويستعلن وتعبث بقدسيته العيون السارقة ، والأيدي المجرمة ... ولكنّ الحياة لم تر لها إلا هذا المكان الذي تعرض فيه الأجسام البشرية لكل وحش بشري ... أفرأيت الزهرة اليانعة تلقى بين ألسنة اللهيب ؟ والحمل الضعيف يرمى بين أنياب الذئاب ؟ كذلك كانت هذه الفتاة وقد قذفت بها الحياة بين ذراعي كل وَبْش فظ غليظ من ذئاب البشر وكلابهم ... هي زهرة ، ولكنّ الرياح العاتية قطفتها من غصنها ثم ألقتها بين الأشواك البرية لتجف عليها وتذوى ؛ هي وردة ولكنّ النهر الجياش اختطفها من منبتها ثم رمى بها في الحقل لتموت تحت أرجل البهائم والبشر ... هكذا صنعت بها الحياة . إن للحياة أسلوباً لا نعرفه ، ولا تصل إليه مداركنا البشرية ...

لبثت هذه الفتاة جالسة تطارد النوم الذي يعبث بعينيها الناعستين من غير نعاس ... تأمل أن تجد امرأ يدفع إليها المال الذي فرضه عليها سيدها حين أرادها على هذه الحياة الداعرة ... فنزلت على إرادته ، وجعلت جسدها مائدة لكل جائع ... وهل تستطيع له مقاومة وهي أمته وملك يمينه ، حملها من وطنها البعيد فنهل من كأس جمالها حتى شبع وروى ، فصبّها على قارعة السبيل تلغ فيها الكلاب ... إنه يصرّفها كما يصرّف دابته ، ويصنع بها ما يصنع بثوبه يلبسه أو يرميه في الطريق ، أو يهديه إلى صديق ، أو يرضى له التحريق والتمزيق ... وذكرت عرضها الذي مزقته مطامع سيّدها — وجسدها الذي أبلته وحشية الرجال طلاب اللذة ، من كل شكل ولون ، فانطلقت تبكي ... وذهبت هائمة على وجهها ، حتى ابتعدت عن هذه البيوت ، وإذا هي بشبح يسير في شعاع القمر ، متشحاً بثوب أسود لا يبين منه شيئاً ، فظنته من رجالها ... ومشت إليه ... فلما رآها ارتاع وارتد ، وعجب أن يرى فتاة صغيرة كأنما هي حوراء من حور الجنان تسير عارية تحت ذوائب الليل ... وسألها : مالك أيتها الفتاة ؟

— مالي ؟ ماذا ترى فيّ ؟

فلم يجب وجعل يحدق فيها تحديقاً شديداً ، مأخوذاً بجمالها ، وهي تنظر متعجبة لأنها كانت من السذاجة والصفاء بحيث لا تدرى جمالها وفتنتها ، ولأنها لم تجد من الرجال من يرفع عينيه إلى وجهها ، وإنما وجدتهم جميعاً يخفضون عيونهم إلى غير الوجه ... فما بال هذا الرجل ؟

ومرت دقائق حسبها كل منهما دهراً طويلاً ، ثم قال لها بصوت حلو رقيق ، وقد أشفق عليها أن تنال برودة الليل من هذا الجسم اللدن الناعم الذي خلق لينعم بدفء الحب :

— لم لا تدخلين إلى دارك ؟

فأجابته هذا الجواب الذي ألفته حتى ما تفكر في معناه ، ولا تدري منه إلا أنه واجب عليها تؤديه كآلة جامدة :

— بعشرة دراهم ... هل تدخل ؟

ووثبت بين يديه تسعى إلى الدار بخفة ظبي أفلت من شبكة الصياد ، وتبعها حزيناً متألماً يفكر في هذا الجمال الطاهر كيف تقوى الرذيلة على تدنيسه ، ويأسى لها ، ويتمنى لو استطاع أن يسمو بها إلى أفق الطهر والعفاف ... حتى بلغت الدار ، فدخلت ودعته إلى الدخول ثم أغلقت الباب ، ووقفت بين يديه تنظر ما يريد ... يا لهذه المسكينة التي عاشت وسط الرجس ولكن قلبها ظل نقياً طاهراً ، لأن الخطيئة لم تصل إليه ... فلم يبد الرجل حراكاً ، فجعلت تنظر إليه حائرة وقد بدأت تخشاه وتظن به الظنون . ماله لا يصنع ما يصنع سائر الرجال ، يأخذونها عارية كشعاع القمر ، فيعبثون بها ، ويسخرونها لذاتهم كأنما هي أداة لا تعقل ولا تشعر ، ويضطرونها إلى فتح صدرها وشفتيها لقبحهم ووحشيتهم وأقذارهم ، ثم يلقونها بعد أن تكل أجسادهم الجشعة ، كما يلقي المرء بزفالة امتصها حتى لم يدع فيها إلا قشرة ممزقة خالية من الماء ...

ماله لا يفعل شيئاً من هذا ؟ إنه ينزع ثوبه فيلقيه عليها يحفظها من برودة الليل ، فيبدو من ورائه شبابه وجماله ، وثيابه الحريرية الغالية ، ثم يأخذها برفق ويجلسها على ركبتيه ، وينطلق يسائلها عن أصلها ومنبتها في لطف ودعة ... ويلقي في أذنيها أحاديث الحب السامي التي لم تسمعها من قبل ، فيحيي في نفسها الطهر والفضيلة ، ويغسلها من أدران هذه الحياة الداعرة ، فتحس كأن جناحيها اللذين حطمتهما يد الأيام قد نبتا من جديد ، وتحس بأن هذا السيد الذي هبط عليها هذه الليلة هبوط ملك الرحمة ، يطير بها في آفاق لم ترها بعد . ولكنها آفاق واسعة كلها نور وعطر ...

وتذوق للمرة الأولى لذة القبلات المسئولة ، التي تمتزج بها النفسان وتتحدان ، وتعرف حرارة الصدر المحب ، وحلاوة العناق اللذ ... فتلقي بنفسها على صدره ، وتمنح للمرة الأولى قلبها وجسمها معاً ..

* * *

ولما خرجت تشيعه كان الليل قد تصرم وبدت طلائع الفجر من وراء الصخور ، تغسل الأرض بالنور ، بعد أن خلعت عنها رداء الظلام . فوقفت الفتاة تنظر إليه وقد أحست بأن هذا الحب يغسل نفسها ويطهرها ، وأن الفجر قد سطع على قلبها فبدد ظلماته ، وتنبهت في نفسها ذكريات ماض بعيد حسبته قد مات منذ زمن طويل فإذا هو حي قد أكسبه الحب يقظة وقوة ، وطفقت صور هذا الماضي تتدافق على نفس الفتاة فتبصر صباها الطاهر كثلج الصباح ، وحياتها في تلك الخمائل البعيدة ، في أرض فارس ، كفراشة تطير خلال الورد ... ولكنها لا تتبين هذه الصور ، ولا ترى منها إلا خيالات ضعيفة . لقد مشت عليها السنون فمحتها بأقدامها .. ثم تفكر في حياتها الحاضرة ، التي تخوض حمأتها الدنسة ، وتعرض لها صور هذه الأجساد البشعة القذرة التي مست جسدها ، وعانقته وقبست منه لذتها ، فيعروها ارتجاف شديد ، وتوارى وجهها بكفيها حياء وخجلا ... ثم تذكر هذا الحب الذي مس قلبها بكهربائه فأضاءه وزكاه ؛ فتعزم على التوبة لتصل ماضيها البعيد الطاهر ، بمستقبلها الذي طهره هذا الحب الوليد ...

* * *

وبزغت الشمس ولم ينمض للفتاة جفن . فدخلت منزلها تستريح وإذا هي برجل يدخل عليها

يبتغى أن تمنحه اللذة فتتأمل فى وجهه فإذا هو بكر الثقفى أشد شباب الطائف وأقواهم ، فيرعبها مشهده ، ويروّعها كأنها هى عذراء لم تفارق خدر أمها ، فتبتعد عنه مضطربة . . . فيعجبه ذلك منها ، ويظن أنها تداعبه ، فيبالغ فى الاقتراب منها ويأخذ بيدها ، فتحسّ لمسه كأن حية سوداء قد التفت على عنقها ، فيقشعر جسمها كله ويقف شعر رأسها وتصرخ به :

— ابتعد عنى ! فيضحك الرجل ويكركر من الضحك ، ويشد على يدها ليجذبها إليه . .

فتعود إلى صراخها . . .

— ماللغزال نافراً هذا اليوم . . . تعالى

— قلت لك دعنى . . . دعنى . . . لست لك

فيصيح بها ساخراً : لمن أنت إذن أيتها العذراء البتول ؟ ألزوجك ؟

ويوغل فى الضحك ويضمها إليه فتلطم وجهه وتوغل فى الصراخ ، فيغضب الرجل ويقسو عليها

— ألم تقل لك إنها لاتريدك ؟

صوت هادىء متزن ، جعل بكراً يرسل الفتاة ويلتفت إليه ، فيرى سيداً كامل الشباب ، موفور الرجولة ، بثياب غالية تشعر بالسيادة والغنى ، وتطمئن الفتاة وترى فيه حبيبها ومنقذها . ثم يخالطها الخوف عليه لأنها تعلم أى رجل هو بكر ، ذلك الذى لايقوم له شاب فى هذا البلد ولا كهل ، وتنتظر نهاية هذا العراك ، وقد أعدت نفسها للدفاع عن حبيبها

ويصيح به بكر مغضباً :

— من أنت أيها الرجل الذى يتجرأ على بكر الثقفى ؟

ويرفع يده عليه ، ولكن الرجل يقبض على ذراعه ، ويقول له هادئاً :

— أتحب أن تعرف من أنا ؟ اقترب لأخبرك

ويلقى فى أذنه ذلك الاسم الكبير ، فتسقط يد بكر على جنبه ، ويعتذر لهذا السيد ، ثم يخرج يائساً يفتش خلال البيوت عمّن يبيعه اللذة .

ويأخذ هذا السيد بيد الفتاة إلى دارها التى أعدّها لها . . .

* * *

وعقد الحب رباطه المقدس بين قلبيهما ، فأصبحت هى حياته لا يعرف الحياة إلا ساعة يكون معها ، واختصرت دنياه كلها فكانت نظرة واحدة فى عينيها ، وملأت نفسه هذه الفتاة التى ظهرت له فجأة ، كما تظهر الشمس فجأة من وراء الجبل فتملأ الوادى نوراً وحياة . . .

لقد نسى هذا السيد المجد الذى ينتظره فى مكة والمعركة الكبرى التى ترقب فيه قائدها ومدبرها .

ذلك هو الحب ، أقوى كائن وأعظم مخلوق . . .

يستطيع الحب أن يمحو من النفس صورة المجد والجاه ، والفضيلة والرذيلة ، والطموح والحسد ، ولكن لا يمحوه شىء . . .

الحبّ أحجيّة الوجود ، ليس فى الناس من لم يعرف الحبّ ، وليس فيهم من عرف ماهو الحبّ . .

الحبّ مشكلة العقل التى لاتحلّ ، ولكنه حقيقة القلب الكبرى . . .

الحبّ أضعف مخلوق وأقواه ، يختبئ فى النظرة الخاطفة من العين الفاتنة ، وفى الرجفة الخفيفة من الأغنية الشجية ، وفى البسمة المومضة من الثغر الجميل . . . ثم يظهر للوجود عظيماً جباراً ، فيبنى الحياة ويهدمها ، ويقيم العروش ويثلها ، ويفعل فى الدنيا الأفاعيل . . .

* * *

كانا يلتقيان دائماً فيتحدثان عن ماضيهما وحاضرهما ، ويكشف لها من أسرار قلبه مثلما تكشف له من أسرار قلبها ، فكان هذا التكاشف طريق الوحدة ، والفناء فى الحب ، حتى إذا لم يبق لأحدهما سرّ يكتمه عن الآخر لم يبق له (أنا) ينفرد بها عنه ...

لقد طهرها بحبّه ، وصهر ماضيها الملوث فأحاله بنار الهوي جوهراً خالصاً ، ورفعها من الحضيض الضيق الذى كانت تتقلب فى ظلماته إلى سماء عالية رحيبة . وليس كالحب إذا خلص مطهراً للنفوس ، ومصلحاً للأمم ، وحافزاً إلى الفضيلة ...

الحب مدرسة الله الكبرى ، وقانونه الأقدس

لولا الحب ما أشرقت الشمس وعمرت الأرض بنور ربها ، ولا منحتها الحياة والنور . ولولا الحب ما التف الغصن على الغصن فى الغابة النائية ، ولا عطف الظبي على ولده فى الكناس البعيد ، ولا حنا الجبل على الوادى المتعزل ، ولا أمدّ اليفبوع الجدول الساعى نحو البحر . ولولا الحب ما بكى الغمام لجدب الأرض ، ولا ضحكت الأرض بزهر الربيع ، ولا كانت الحياة . . .

* * *

كانا يخرجان كل غداة حين تبسم الشمس بسمتها الأولى ، فيجلسان على هذه الصخرة المنفردة المطلة على البساتين القريبة ، والقفار البعيدة ، فيشاركان العصافير غناءها ، والورد ضحكه ، والنسيم همسه ، والنور طهره وصفاءه ، فيتحدثان ويتناغيان كحمامتين ضمّتهما وكر ، وهما ينظران إلى الرعاة يسوقون أغنامهم نحو السفوح العاشبة يغنون أغانيهم الساحرة أو ينفخون فى الناي تلك النغمة الفاتنة التى يتوارثها الرعاة جيلاً عن جيل فلا يفقدها التكرار حلاوتها ولا جمالها ، فاذا انبسطت الشمس وتصرّمت الظلال أويا إلى الدار فعاشا روحاً واحدة في جسمين ... حتى إذا وقفت الشمس للوداع خرجا مرّة أخرى إلى الصخرة يودعان الشمس ، فينظر كل منهما بأربع عيون ، ويهمس فى أذنيها وهى فى حضنه ، صدرها إلى صدره ، وخدها مستريح إلى خده ، بأناشيد الحبّ العذبة فتسمعها بروحها وتجيب عنها بلغة عينيها ، حتى تغيب الشمس ويلق الليل ذوائبه السود على الدنيا فيعودان

* * *

الحب ربيع الحياة الزهر ، ولكن الربيع ينتهي ويأتى الصيف بحرارته ، والخريف بشحوبه ، والشتاء بزمهريره ، ولابد أن ينتهى الربيع ! أيام الحب كأس مترعة بالخمرة الآلهية ، ولكن الكأس تفرغ ويحسّ الانسان بالظمأ ، ولابد أن تفرغ الكأس !

عاشا فى ليالى الحب ما عاش الصيف ، فلما بدت طلائع الخريف وغمرت الطائف وصخورها ، وعلا صوت الواجب من بطن مكة يدعو هذا السيد .. لم يبق بدّ من الفراق ... إن الحرب تدور هناك وراء هذه السفوح البعيدة ، يخوض قومه لظاها أفيبق فى نجوة من لظى الحرب ، وهو السيد الشريف والفارس العلم ؟ أيتقلب قومه فى غمار المعركة المشتعلة ويتقلب هو فى أحضان امرأة يقطف من عينيها السحر ويذوق من فمها الخمر ؟ لو أن رجلا من قريش لم يكن فى العير ولا فى النفير رضى بهذا الفرار لكان له سبّة الدهر ؛ فكيف بسيد العير وبطل النفير ؟ لم يبق بدّ من الفراق ... فليمزق قلبه

شطرين ، فيدع شطراً فى هذه الأعالي المخضرّة الساحرة يحلم بالحبّ ، ويتجرع غصص الذكريات ، ويذهب بالشطر إلى ميادين المجد ليألم فى سبيل الوطن ويحمل جرحه الدامى ليأسو جرح أمته ، ويضحى بالحب فى سبيل الواجب ...

وتهيأ للوداع ...

وعادا يزوران مرابع الهوى ومجالس الحبّ ، فيودعها ذكرياته وقلبه حتى انتهى بهما المطاف إلى هذه الصخرة المشرفة على الصحارى النائية ، فجلس إليها وأخذ فتاته بين ذراعيه يضمها ويخفى وجهه فى عنقها وخلال ثيابها ، ويشمّ عبقها كأنما يريد أن يتزود منها لأيام الفراق . وأخذت هي بنشوة الحب فجعلت تشد يدها عليه وتعبث بشعره ، وتريح رأسها على رأسه ، وتتمنى لو أن هذا الحبّ يصنع المعجزة التى ينتظرها المحبون أبداً ... أن يمحو هذه (الأنا) و (الأنت) ويجعل العاشقين شخصاً واحداً كما جعلهما روحاً واحدة ، وترى وهى بين ذراعيه كأن بينهما بعد المشرقين ...

وكان عند أقدامهما بستان جميل ، قد خالطت خضرته حمرة الشقائق الفاتنة فرأته يحدق فيه ، وفى عينيه دمعة ، فراعها ما ترى ، وانطلقت تسائله ...

— اسمعي يا فتاتى ...

— أنا سامعة ؟

— أريد أن تغفرى لى ؟

— ومم تستغفرنى أيها الحبيب ؟

— لقد كان حبّي وبالاً عليك . لقد كانت حياتك ساكنة ساجية كليل الطائف ، فملأها حبي زمهريراً وبرقاً ورعداً . لقد كانت مثل اللجة الهادئة ، فهجت فيها الأمواج . لقد أورثتك الألم ... والألم حصاد الحبّ ، فهل تغفرين لى ؟

أى ألم يا حبيبى ؟ أنا سعيدة ... سعيدة جداً .

وانطلقت تقبله فى فمه ...

— ولكن الواجب يدعونى إلى الذهاب ...

— بودّى ألاّ أذهب ، وأن أبقى معك أبداً ، ما ذا يصنع الانسان يا حبيبتى ؟ .. أتحبين أن يقال أنى فررت من المعركة ؟

— وأنا ؟

— سأعود إليك ، أحلف لك أنى سأعود ...

— وهذا الذى فى أحشائي ؟

— ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ أأنت حامل ؟

— نعم

— آه . إبنى !

واستطاره الفرح فأقبل يضع قبلاته من وجهها وعنقها حيث تبلغ شفتاه

— ليتنى أبقى حتى أراه . ليتنى أبقى . هذا إبن الحبّ ...

— إبق ، إبق ، أتوسل إليك ، ماذا تخشى ؟

— أخشى العار ، انها سبّة الدهر ، فدعينى أذهب . سأعود إليك ، أفتنسينى إذا انا ذهبت ؟ أتلقين بنفسك فى أحضان غيري ؟ لا لا ، إنك لن تنسى . إنك ستقومين على تربية ابننا . ستنشئينه على العظمة والمجد ، ليكون رجلاً يحمل قسطه من إرث أبيه ... وإذا سألك عن أبيه فلا تخبريه من هو أبوه . دعيه ينشأ مستقلا كالزهرة المنبثقة في الجبل ، ويعش حراً كالطائر الذى يغرد على كل غصن . لا تخبريه من هو أبوه ، بل أعدّيه لفهم هذه الحقيقة ، حتى إذا صار أهلاً لفهمها ، وغدا كفوا لحمل هذا الاسم

كنت أنا الذى يخلعه عليه ، وان لم أكن حياً فسأدع له من يخلع عليه اسمى ...

* * *

ووقفت الفتاة تنظر إليه وهو ينحدر فى هذا الطريق الضيق ، الذى يختفى حيناً وراء الصخور ، ثم يظهر ويوالى سيره نحو الرمال حتى غاب عن ناظريها ، فتلفتت تلقاء البلد ، فاذا هى تنكرها وإذا هى لاتعرف من هذه الدنيا شيئاً بعد ان غابت عنها دنيا الحب فخفق قلبها واضطرب ، وجعلت تنادى حبيبها وتلح في النداء . وتشير إليه وقد غاب عن ناظريها وراء الأفق البعيد . فلما لم تجد مجيباً تيقنت أنها لن تلقاه أبداً . فخرت على وجهها باكية منتحبة

ولم يبق لها من الحياة إلا ذكريات هذا الحب الذى ولد شاباً قوياً ، ولكنه مات طفلا صغيراً وهذا المال الذى أبقاه لها الحبيب . تنفق منه على نفسها وولدها وترضى به سيدها ليدعها آمنة مطمئنة إلى حياة شريفة لا تدنسها الرذائل ، فكانت تتألم وحيدة كشمعة تشتعل فى البهو الخالى ، وتقهر نفسها الأحزان فلا تجد من تبثه أحزانها. لم يكن لها إلا الحب ، فكانت تعانق الحب فى الليل وتسايره فى الطريق ، وتناجيه فى الصباح ، وتناغيه فى المساء وتصحبه إلى هذه الأماكن التى عرفت فيها السعادة ولكنها لا تجد فى كل ذلك إلا الألم . إن كل ماترى يذكرها بالحبيب فيزيدها لوعة ، ومتع ليالى السعادة تستحيل إلى آلام ، فيا ليت الانسان لا يذكر ، إذن لما تألم ، إن ذكرى اللذة مؤلمة . وذكرى الألم لا تسر .. أو ليس من أكبر النعم على الانسان أن ينسى ؟ لولا النسيان كانت الحياة لا تطاق !

لقد قوى حبها واشتد ولكنه استحال من طفل يرقص فى شعاع الشمس ، يلهو بالألاعيب إلى شيخ يائس يتأمل فى الظلام ، لقد نزع ثوب الفرح الزاهي ، ولبس ثوب الكآبة القاتم . لقد انحصرت حياتها فى أمر واحد هو التفكير فى الحبيب الذى أكسبه طول الفكر صورة سحرية بارعة لا يملكها بشر . فكانت تقيس من ترى من الرجال بهذه الصورة التى استقرت فى خيالها فلا يعجبها رجل ولا تحفله ... بل لو أنها نظرت إلى صاحب هذه الصورة بشكله الحقيق لما أعجبها !

أرادت أن تغرق غرامها فى لجة العبادة فكانت تؤم معبد قومها فى الصباح الباكر ، لتفيء إلي صلاة عميقة ، فلا تجد فى هذه الآلهة المصنوعة من الحجر ما يثير فى نفسها الورع والخشوع ، وتمثل لها مطرقة النحات الذى صنع هذا الآله ... فتعاف عبادته ، ولا يروقها منها ما كان يروقها وهى صغيرة من نار الدهقان الذى نشأت فى داره ، ولكنها نسيت عبادة هذه النار من زمن بعيد ، فبقيت حائرة لا تطمئن إلى عبادة

ما أشقى المحبين ! يمشون كما يمشى الناس ، ويأكلون كما يأكلون ، ولكنهم يعيشون فى دنيا لا يعرفها الناس ولا يصلون إليها ، تضيق الدنيا بالمحب إذا جفاه محبوبه حتى ليكاد يختنق فيها على سعتها ، ويجد فى العش الضيق الذى يلجأ إليه مع محبوبه دنيا واسعة ، ويتألم المحب فى اللذائذ ، إذا لم يذقها معه من يحب ... والطبيعة الجميلة سواد فى عين المحب قاتم إذا لم تنرها مقلتا المحبوب

كان عمل هذه الفتاة أن تطوف كل يوم بهذه المنازل التى ولد فيها حبها ونما . فتبكى وتتذكر وتقبل الأحجار والأشجار ، وتسير مع الوهم أحياناً فتظن

بأن الحبيب حاضر معها . فتهم بعناقه وبثه شكواها ثم تجدها وحيدة ، فيجب قلبها ويشتد خفقانه ، وتسقط على وجهها فتبكي وتذوب وحيدة لا يدري بها إلا الله ، وكانت تأمل أن يعود فتنظره على الطريق وترقب الدقائق فاذا تصرم النهار ولم تره عادت إلى منزلها آيسة محزونة ...

وانتفخ بطنها من الحمل ، فباتت تحمل أثقال الحب في بطنها وقلبها ، وعزفت عن الطعام والمنام ، فرق جلدها وتهافت جسدها ، فلم يعد في طوقها أن تطوف بمناسك حبها ، ومنازل هواها ، فكانت تحيي الليالي ساهرة مؤرقة ، تناجي النجم ، وتسائل الليل عن حبيبها ، وتخاطبه من وراء الصحراء كأنه معها

« أين أنت أيها الحبيب ؟ هل تنام الساعة آمناً مطمئناً ، أم أنت بين ذراعي غيري ؟ قد نسيتني ومحوت من نفسك ذكرى هذه البنى التي طهرتها بحبك ، ولكنها لوثت شرفك ومجدك بماضيها الدنس ؟ لقد كان حبك لي نقياً كماء السماء ، ولكن شهوتي المضطرمة عكرت صفاءه ... أنا الطائر الضعيف الذي حطم الدهر جناحيه فألف حياة الأرض مع الحشرات والهوام ، فجئت أنت من السماء لترفعه بجناحيك القويين إلى السماء ، فرفعته حتى استطاع أن يحلق فيها ، ولكن هذا التراب الذي ظل عالقاً به قد غبّر جناحك أيها الصقر ، أفلا تعفو ؟

قد قنعت بك من الحياة ، حتى ما أبالي إذا وجدتك ماذا خسرت ، ولكن بماذا أقنع وقد خسرتك أنت ؟

أتذكر ساعة جلسنا إلى الصخرة وحيدين ، والطير ترتل صلاة المساء ، والشمس نائمة على سرير الأفق صفراء كأنها مريضة غاص رأسها في عشرات الوسائد ، ونحن متعانقان صدري إلى صدرك ، وعيناي إلى عينيك ، وخدي ملصق بخدك ، أقبل عنقك وتمرغ شفتيك بشعري ، ثم نهتني إلى مشهد الغروب ، فطفقنا ننظر إليه مشدوهين ، حتى غبنا في قرارة حلم ممتع من أحلام الحياة ...

أتذكر ... ؟

أتذكر مسرانا في هذه الغابة الصغيرة الملتفة ، وقد خلونا فيها وحدنا وتركنا الدنيا بضجتها وصخبها حين نمشي وحيدين ليس معنا إلا الحب الذي يربط بين قلبينا ، تتلفت حولنا فلا نرى إلا جذوع الأشجار المتأنقة ، تتسلسل من كل جهة حتى يضل البصر طريقه خلالها ، وأغصانها متشابكة من فوقنا كأنها سقف مرفوع ... لم أكن أشعر بالوحدة لأنك معي ، وهل كنت أبتغي من دنياي أكثر من ذلك ؟ حسبي أنت من الدنيا ... أتذكر ذلك ... ؟

أتذكر تلك الشجرة المتعزلة الوحيدة التي كان لها في تاريخ حبي أجمل الآثار ؟ أما أنا فساهرة أذكرها وأفكر فيها ...

لماذا أذقتني لذة الحب ؟

لقد كنت راضية بالحياة مطمئنة إليها ، أعيش في الظلام ، فلما عرفت الحب عرفت النور والسمو وعلمت ماهي اللذة ... فلا النور دام ، ولا أنا أطيق الرجوع إلى الظلام ! »

ولست أستطيع أن أعيد كل ما قالت ، لأنه مكتوب في كل قصة غرام ، وهل الغرام إلا قصة واحدة تتكرر أبداً ولا يمل البشر تمثيلها ؟ وهل تمر ليلة على

بلد فلا ترى فى أحشائه عاشقاً مدنفاً يسهر ويتألم ، بينما ينام الناس آمنين لا يرحمون المحبين ، لأن الحب شىء لا يدرى به إلا المحبون !

ولبثت الفتاة على عذابها ، حتى أحست بالجنين يتحرك فى بطنها ... فذهبت تدفع وحدها ثمن هذه اللذة التى شاطرها متعتها الرجل ...

* * *

واستهل الوليد جميلا كالزهر ، حلواً كالأمل ، نقياً كثلج الربا ، تبدو فى عينيه كبرياء أبيه ، وجمال أمه ، كما يبدو خيال السماء الصافية فى البحيرة الساكنة ، فتمتلئان بهما كما يمتلئ الجدول بمياه الينبوع الصافى ، ويترددان فيهما كما يتردد صدى أنشودة الراعى فى مسارب الوادى العميق ...

فضمته إلى صدرها الفياض بالحب ، ونذرت له حبها وحياتها ... وعزمت أن تكون له أماً لأنه ابنها ، وأن تكون له أباً لأنه ابن حبيبها الغائب ، وأن تنشئه على الكبرياء والمجد والسيادة ، نزولاً عند إرادة الرجل الذى أحبت ، ورجاء أن يحمل هذا الوليد اسم أبيه الكبير ...

وتكامل مثلما يتكامل القمر فى أوائل الشهر فلم يلبث أن صار بدراً فى كل عين ، ونما مثلما ينمو الغصن الغض فى خمائل الروض ، يرتفع فى الربيع ليدرك نيسان ويستمتع بجماله وزينه بورده ، فلم يلبث أن ملأ بعطره كل أنف ، وتزايد كأنه أغنية حب بدأها همساً فى جوف الليل ثم استطال بها صوته حتى ملأ الفضاء ، فلم تلبث أن صارت أغنية الحب على كل لسان ، ويقوى كأنه الحب ينبثق فى القلب ، فلم يلبث أن صار حباً مستقراً فى كل قلب ... كذلك أصبح هذا الغلام ...

كان ملء العيون والأفئدة ، تمر السنون فلا تزيده إلا ذكاء ونبوغاً ... وكان سعيداً ينعم بحب أمه ومالها ، ولكن أمراً واحداً كان ينغص عليه هذه السعادة ، ويؤلمه أشد الألم ، ذلك أنه لا يعرف من هو أبوه ... وكثيراً ما سأل أمه وأطال عليها المسألة ، ولوّن لها الأساليب . فكان يمنعها من أن تخبره إرادة أبيه . فتظل معتصمة بالصمت ... وكثيراً ما أمضى الساعات ساهماً واجماً يفكر فلا يهتدى ! ...

فأزمع أن يكون بفعاله أبا نفسه ... وأن ينزل من هذه الجبال فينامر فى الحياة ...

* * *

ظل ذلك السيد القرشى يفكر فى الفتاة ويصلها بالمال ويتعرف أخبار ابنه ويقوّم سبيله ، ولكنه انصرف عن الحب ولم يعد له فى حياته مكان. إن على عاتقه عبئاً ضخماً ، إنه يقود إحدى الفئتين فى أعظم معركة عرفها تاريخ الانسان من يوم هبط آدم من الجنة إلى يوم تقوم الساعة ... المعركة بين الحق والباطل ، بين الحرية والاستعباد ، بين المستقبل المنتظر والماضى الذميم ، بين الحضارة والبداوة ... وكان هذا السيد قائد الفئة المدافعة عن الباطل ، فجال الباطل جولة ثم اضمحل ، فإذا النور الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يضىء الجزيرة ثم يخرج إلى الشام والعراق ، فترفرف عليها رايات محمد ظافرة منصورة ؛ وإذا أبوسفيان هذا السيد القرشى جندي صغير فى جيش محمد ... ذلك أن مقاييس العظمة قد تبدلت ، وأن الدين الجديد لا يعتمد على النسب ولكن على الكفاية ، ولا يعرف الطبقات ولكنه يقرّ المساواة . فهبط أبو سفيان ، حتى صار

جندياً ، وارتفع هذا الرجل الذي لا يملك نسباً فى هاشم ولا أمية — وليس له جدود من مخزوم ، ارتفع عمر حتى صار أمير المؤمنين ووارث كسرى وقيصر .

تبدلت الدنيا كلها ، فاذا الدعوة التى كانت تكافح لتغلب مكة ، قد استخدمت مكة وأهلها والجزيرة كلها ، فى حرب الأعداء الذين سرقوا حرية الشعوب وعبثوا بتراث الانسانية ، وإذا القرية التى كانت منقطعة وراء الرمال قد صارت منذ هبطها محمد قصبة الأرض ووارثة المدائن سلطانها ، وشريكة القسطنطينية فى بلادها . وإذا هذا المسجد الصغير المبنى من الحجارة والطين وسعف النخل ، يغلب الايوان العظيم بشرفاته ودعائمه ، وقصر الشالسيه بزخارفه ونقوشه وقبابه وأبراجه ، ويصير ندوة الدنيا ، ومدرسة العالم . . .

فى ذات مساء دعى الناس إلى الاجتماع فى هذا المسجد ، وكان المسجد دار السياسة كما كان دار العلم والعبادة — فتوافدوا عليه من كل صوب ، فلما اجتمعوا قام أمير المؤمنين فبشر الناس بفتح جديد وقدّم إليهم شاباً لم يروه من قبل يدعى زياداً ليصف لهم هذا الفتح الذى جاء بخبره ، واستشرف الناس ونظروا إليه ، فلما أبصره أبو سفيان وكان فى أصل المنبر إلى جانب علىّ خفق قلبه واضطرب ... إنه ابنه زياد — ابن الحبّ — وحبس أنفاسه ليصغى إليه ، وقد خاف عليه الفضيحة ، فاذا الفتى الجميل الوسيم يخطب خطبة يملك بها الألباب ، ويستهوى القلوب فلا يتمالك نفسه أبو سفيان أن يقول لعلى :

— (أيعجبك ما سمعت من هذا الفتى ؟)

— (نعم)

— (أما إنه ابن عمك)

— وكيف ذلك ؟)

— (أنا قذفته فى رحم أمه سميّه)

— (فما يمنعك أن تدعيه ؟)

— (أخشى هذا القاعد على المنبر أن يفسد علىّ إعابى[1])

* * *

وذهب أبو سفيان يلقى معاوية ، وقد استيقظت فى نفسه ذكريات حبه القديم ، وطفق ينظر من وراء سبعة عشر عاماً إلى تلك الفتاة التى أذاقته السعادة ، ونازعته نفسه إلى الاعتراف بابنها علناً ثم ثناه أنه لم يحن الوقت بعد ، إن اسم أبى سفيان لا يحمله إلا قائد كبير ، أو وال أو أمير ، فليتربص وليتنظر ؛ ولكنه شيخ كبير هو هامة اليوم أو غد فمن هو الذى يحمله هذا السر الذى يضيق به صدره؟ ليس له إلا صدر معاوية ، وذهب يلقى معاوية (كسرى العرب) ...

* * *

إسمع يامعاوية ... أتعرف الفاكه بن المغيرة ؟ لقد كان هذا الرجل زوج أمك ... أمك هند بنت عتبة بن ربيعة التى جمع الله كبر النفس ، وكرم الوالد ، فلم يقو على حفظ هذه الأمانة ، واختلفا ... وتحاكما إلى بعض كهان اليمن ... وجزعت أمك وخافت ، فقال لها عتبة :

— (انى أرى ما حلّ بك من تنكر الحال ، وما ذاك إلا لمكروه عندك)

— قالت : لا والله يا أبتاه ، ما ذاك لمكروه ولكنى أعرف أنكم تأتون بشراً يخطىء ويصيب

(١) جمل من التاريخ

ولا آمنه أن يسمى ميتاً يكون علىّ سبّة)

— (قال : انى سوف أختبره لك[1])

وخبأ له خبيئة فعرفها ، ثم قدموا إليه أمك فى نسوة ، فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بيده على كتفها ، ويقول انهضى ، حتى دنا من أمك ، فقال لها ، انهضى غير متهمة ولا جانية ، (وستلدين ملكا يقال له معاوية[1])

فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها ، (فنترت يده وقالت إليك عنى ، فوالله لا حرصنّ على أن يكون ذلك الملك من غيرك[1])، فكانت امرأتى ... وكنت ابنى ...

فاذا صحت بشارة الكاهن ، فاعلم أن لك شريكا فى ذلك الملك ...

فى ذلك اليوم تسمع صوت أبى سفيان أبيك الذي يستصرخك من أعماق قبره ، يرن فى أعماق قلبك ، لترفع ابنه الذى انبثق من قلبه وحبه وتخلع عليه اسمه ، وتمنحه حقه من إرث أبيك وإرث أسرتك الماجد ...

أتعرف من هو ذلك الأخ ؟ أتعرف زياد بن عبيد الذى خطب على منبر المدينة بين يدى عمر ، مخبراً بالفتح ؟ ذلك هو ابن أبيك ، ذلك هو (ابن الحب) فاجزنى هل تحفظ وصيتى ؟

— نعم يا أبى نعم

— إذن تقرّ عينى وهى تحت التراب ... ...

وذهب أبو سفيان يذكر ليالى الحبّ !

على الطنطاوى

(١) جل من التاريخ

الصيف خفيف هذا العام

لأن

شركة مصر للغزل والنسج

تقدم لكم المنسوجات القطنية

معتدلة فى أثمانهـــــا . . جميلة فى ألوانهـــــا

فبادروا بأخذ طلباتكم

الملك والدرويش

بقلم ولفريد ستابلتشير
للأستاذ محمد لطفي جمعة

كان في بعض أقطار الفرس — آذربيجان — ملك اسمه فضل الله ، وكان عادلاً رحيماً ، رؤوفاً برعيته، كريماً على فقرائهم، ساهراً على سعادتهم ، شاهراً سيوف جنده للذود عن حياضهم. يجوس خلال ديارهم لينصف المظلوم للظالم، قائماً بواجب الحكم خير قيام ، ناصباً ميزان العدل والاحسان . ومن حسن سيرته وسماحة نفسه أنه كان يعيش على أتم وفاق ووئام مع زوجته الحسناء أنوشروان . وكانت الملكة أنوشروان نموذجاً للوجه الضاحك المستبشر الطلق المتهلل ، الناطق بما تجيش به الروح من مشاعر الفرح والطرب وعواطف الرقة والظرف والدماثة ، فأجال في صفحات ذلك الوجه الفارسي البديع ماء البشر والبشاشة ، وكساه رونق الأنس والابتهاج، ونضرة النعيم والأمن والطمأنينة وكالبدر يغنيها تودد وجهها
إلى كل من لاقت وإن لم تودد

هذا البشر والبشاشة والابتهاج التي هي أهم عناصر الحسن والجمال في المرأة لا تجتمع إلا مع الأدب والتواضع والرقة ، ولا تتوافر إلا لمن ينعمن بعيشة هنية وحياة رضية

وكان الملك فضل الله صالحاً ورعاً ، تقياً مؤمناً ، يقرب من يتوسم فيهم الاخلاص ويثق بمن يظهرون التقوى ، ويلين لهم ويغدق عليهم تزلفاً إلى الله وقربى. فقدم على بلاطه يوماً درويش من المتصوفين حديث السن ، جميل الصورة ذو فطنة وذكاء وأدب وظرف ، فأقام أياماً بين الحاشية والبطانة ، فاستطاع أن يجذب إليه القلوب ويفتن الألباب برقة شمائله وحلاوة طبعه، وظرف خصاله ، وعذوبة حديثه . وكان الفتى المتصوف جم التواضع ، كثير الاطراق، ذا قناعة وعفة ، غزير المعرفة ، فنمى خبره إلى الملك وبالغ الأمين الذي وصفه في حسن تقديمه في غيبته

فتاقت نفس الملك إلى رؤيته وسماع حديثه والسرور بارتشاف سلافة محادثته ، فأوفد أمينه

تعريف بالقصة

وبفريد ستابلتشير كاتب انجليزي مقل، أحب الأسفار في الشرق وكان ذلك عقيب قراءته قصة « حاجي بابا الأصفهاني » التي كانت لها شهرة ذائعة . فساح في إيران وجذبه إليها شعر الخيام ، وأداب الجامي وحافظ والفردوسي ، وقد دون أسفاره في مجلدين وكتب بضع قصص قصيرة منها قصة الملك والدرويش التي جمعها على نمط البوليسيات الحديثة ، وإنما المعركة بالعقول بين الأرواح ، لا بين الأجساد . ووصف الحيلة الشرقية على هذا الأسلوب البارع نادر في الأدب الأوروبي. قال محرر « بلاكوود مجازين » الذي ننقل عنه هذه القصة الرائعة « إنها خارجة من أعماق الشرق كليلة من ألف ليلة ، عبيا مسحة من أحلام الوديان الهادئة والجبال الشامخة، وفيها ألوان من حياة الملوك الدهاة وبعض الدراويش الخادعين الذين يتجرون بالأرواح ويسرقون الأجساد وينصبون شباكهم لأحبابهم قبل أعدائهم ، ويتصيدون نفوس من أحسنوا إليهم ، وهم يخفون تحت مرقعاتهم نفوساً أسود من غابة الجب وأعمق من الآبار الناضبة » ولذا أثرنا تعريبها لقراء الرواية عسهم يجدون فيها من المتعة ما ذكره ناقدها الأريب .

الذى ذكر محاسنه وفضائله فدعاه إلى مجلس العرش فتلطف الملك فى استقباله ، وأقبل عليه حتى أزال وحشته ، فوجد ما شاء علماً وأدباً ، ثم شجعه فأصاب مالم ينتظر ، دهاء وأرباً ، وسعة حيلة ، وجمال وسيلة ، وبُعدغور ، إلى تجربة وحنكة وغزارة حكمة . وألفى حقيقة الرجل فوق الذى ذاع ، وأبصر فى صورته وعقله وبصيرته وبصره بالأمور أكثر مما قَصَّرت فى نقله الأفواه الأسماع . ففرح الملك بهذا المتصوّف الناشئ أعظم الفرح ، وكأنه ظفر بغاية الأمانى ، ونادرة الدهر ، ورابع المستحيلات . فتمسك به وأدناه ونسى بهذا الضيف الجديد كل الندامى والسُّمّار ، واكتفى به عن جميع الوفود والزائرين . وأراد أن يختص به نفسه وأن يستبقيه فى بلاطه ، ليستمتع به ما بقى من أيام عمره التى تخيلها صحراء مجدبة بدون استمرار مودته ، فعرض على الدرويش السعيد أسمى ما لديه من المناصب والرتب ، وبذل أقصى ما يملك بذله من المال والنشب ، وحسّن له أعلى مناصب الدولة ، حتى رياسة الوزارة وجلال الإمارة ، لم يبخل بهما عليه ، وهى تلك الوظائف التى رأى سادة البلاد ومشيختها وصفوة خيارها وزعمائها يتكالبون عليها ، ويتهافتون على لهبها تهافت الفراش على النار ، مهما بلغت بهم السن وقطعوا من أشواط الحياة ونالوا من مفاخر المجد فى السلم والحرب ، فما زالت بهم حكة تدعوهم إلى معاودتها ، ولكن الدرويش اللبيب تنحى شاكراً ، وأبى معتذراً قائلا :

— مولاى ! لست وربى سبحانه أرفض بطراً ولا أتردد مطلاً ، ولا أتعفف تصنعاً . ولا أحرم نفسى من جميل عطفك ترفعاً . أستغفر الله وأستميحك عفواً . ولست وحقك بالدّعىّ الذى يظهر التواضع الكاذب ، ليزداد فى نظرك قدراً ، فما أنا بحاجة إلى هذا كله ، أو بعضه ، ولست بمن تخفى عليه حقائق الأمور ، ولكننى عاهدت الله ونفسى ألا أتقلد منصباً ، ولا أكبّل روحى بسلاسل الأعمال فى هذه الدنيا ، لأننى قد آثرت الحرية على كل ماعداها . فإن صدقتنى ، ولا إخالك إلا متفضلا علىّ بثقتك ، تركتنى أعيش فى أكنافك ناعماً برحمة الله ورضاك ، كما أنا وكما كنت دخلت أول يوم فى رحابك . وإلا فأطلقنى أذهب أنى شئت ولك الشكر على ما أوليتنى من فضلك السابق . فلما أصغى الملك العادل الرحيم فضل الله إلى حديث نديمه ودرويشه ، تضاعف إعجابه به ، وَرَبَتْ ثقته فى ورَعه ، فخصه بأوفر نصيب من الحظوة والقرب ، حين أعياه أن يجعله وزيره ومشيره

ولما كان الدرويش يتقن ركوب الخيل ويحسن الكر والفر ، ويجيد الرماية ، مما لا يتوافر إلا لأبناء الملوك وخاصة الخاصة ، فكان يدعوه أحياناً إلى صيد الظباء على صهوة الجياد ، فيرى من ضروب الفروسية عجباً . وفى ذات يوم خرجا يلهوان فى بعض الحراج ، وقد انقطعا عن الحاشية والأتباع وأنس الدرويش من الملك ميلاً إلى سماع حديثه فأنشأ يقص عليه بعض نوادر أسفاره ومخاطر أيامه السالفة ، ومغامرات ماضيه ، فساق فى عرض أخباره أنه كان فى جزيرة « ديسكا » من جزر الهند الشرقية ، فصحب رجلاً من شيوخ البراهمة ، وإماماً من أئمتهم ، وقطباً من خيرة أقطابهم ، هو مركز دائرة الوصول عندهم ، ومنبع نهر الحقيقة فى عرفهم ، وتجمع أسرار الطبيعة لديهم ، سادن الهيكل ، وأمين خزائن الحكمة . وقد

شاء الله الواحد القهار والفعال لما يريد أن تكون وفاة هذا البرهمي بين ذراعي الدرويش

فلما جاءته سكرات الموت ، وبلغت روحه التراقي ، ولم يبق بينه وبين «الانفصال عن جسده» وثوبه الأرضي والانسلاخ عن جلده والوثب عن كثب إلى العالم الثاني ، سوى بضع ثوانٍ ، أو قُلْ بعض أنفاس تتردد ، أومأ إليَّ أن أصغي إليه ، فطاطأت رأسي حتى لامست فمه فباح لي بسر من أخطر أسراره ، وأخذ عليَّ عهد إليه وميثاقه ألا أبوح به ما بقيت فيَّ نابضة

فوقف الملك مذهولاً من إفراغ الخبر في قالب التشويق حتى طارت نفسه شعاعاً في سبيل الوقوف على حقيقته . فقال للدرويش على سبيل التخمين والحدس « لعله صناعة الذهب من المعادن الخسيسة ، أو حجر الفلاسفة »

قال الدرويش : كلا ! بل هو أعجب من ذلك وأغرب

قال الملك : لعله نبع الحياة الذي إذا شرب منه الشيخ جرعة عاد إليه شبابه ورجع إلى صباه وأقبل على اللذات ينشف كؤوسها كما كان فتياً

قال الدرويش : كلا ! يامولاي بل هو أعجب من ذلك وأغرب

قال الملك : لعله بساط سليمان أو فرس نعمان الذي ينقلك من مكان إلى مكان في طرفة عين

قال الدرويش : كلا ! بل هو أعجب من ذلك وأغرب :

قال الملك : لعلك تستطيع رؤية من تحب وتخاطبه وتعاتبه وأنت منه على بُعد شاسع ومسافة تطويها الجياد في أيام

قال الدرويش : كلا ! بل هو أعجب من ذلك وأغرب

فضحك الملك وقال : إلى هنا وكلَّت غزالة ذهني فلا تجري وراء ذلك ، وهبط طير العقل فلا يحلق فوق ما ظننت

فقال الدرويش ، وهو عابس لا يفارقه الوقار ولا يجاري الملك في سروره : إنما السر هو إحياء جثةٍ ميتة بنقل روحي إليها

فبهت الملك وقال : التقمص أو التناسخ

قال الدرويش : فليسمه مولاي بما شاء من من الأسماء . إنما هو البعث والاستبدال وقهر الموت

فقال الملك : ان الذي يؤمن به يكفر بدينه ، فقد كان عقيدة المجوس وأتباع زاردشت . إن البعث لا يكون إلاَّ مَرةً واحدة ، يوم القيامة . ومعجزة إحياء الموتى لم يهبها الله إلا نبياً واحداً

فقال الدرويش : لادخل للكفر والايمان ، فإنها صناعة وذريعة ، لا كرامة ولا معجزة .

فقال الملك : إن في كتبنا خبر حسن بن صباح الذي رأى حماراً يحمل حجارة ، ويتلكأ في الطريق وسائقه يلكزه والحمار يبكي ، فدنا منه وتحدث إليه ثم قال : إنه صاحبي فلان ، رفيق صباي وزميلي في المدرسة ، قد تقمصت روحُه جلدَ حماره . ولكننا نقرأه كما نقرأ شعر صاحبه الخيَّام على أنه حديث خرافة وتسلية النساء ومزاح الأغرار

قال الدرويش : والملك آسر حدَّون قلَّبه الله أتانا ترعى العشب وتمزق الكلأ بأسنانها وأنيابها وتطرد الذباب بذنبها ، وكان ذلك تهذيباً له وإذلالاً لنفسه بعد طغيانه وظلمه ، وقد كان ملك آشور ، فغزا ديار الملك ليللي ودمر بلاده تدميراً وتركها طعمة

للنار وحبس عدوه المظلوم فى قفص من حديد .

فقال الملك : لقد حسبتك تمزح ولكن إيراد المثال يضع حداً للقيل والقال . قل لى بربك أيها الدرويش أين تذهب الأرواح عندما تغادر الأشباح ؟ أيذهب الملك العادل والحكيم الخبير والشاعر الأديب والجمال الناضر إلى حيث لاعودة ، إلاّ يوم النشور ، حيث يردون دار النعيم أو دار الشقاء ؟ وعلامَ العلم والأدب والتفكير والأحلام والرجاء إذا لم تطل حياة الانسان أكثر مما نرى فى هذا الوجود ؟

فقال الدرويش : حذار يامولاى فقد كنتَ تُحَذِّرُنِي مغبة النظر فى هذه الحكمة الإلهية ، وها أنت ذا تندب حظ البشر ، لأنهم يعيشون على سطح الأرض مرة واحدة ، وتستكثر على الموت أن يطوى صفحاتهم قبل أن يستمتعوا ، أو توافيهم آجالهم فى الوقت الذى آن أن يجنوا ثمار جهودهم ، وينتفع الناس بخيرهم ... ولعلك أيضاً تجد الزمان الذى يذهب بين الموت والبعث أطول مما يستحقه الفضلاء من السجن فى البرزخ والأعراف وما إليها

فقال الملك : ماأسرع تنقل الفكر الإنسانى ! فأين نحن من صناعة البرهمى التى لقنك إياها . هيا بنا إلى الصيد يادرويشى العزيز ، فإن فيه انصرافاً عن مزالق الزندقة ونجاة من الوقوع فى مهاوى الهرطقة .

وفى تلك اللحظة سنح لهما ظبي ، فرماه الملك فأصماه ، ثم أقبل على الدرويش فقال :

— دونك جثة هذا الظبي الغرير ، فأرنى آيتك وأثبت لى براعتك وأعده إلى الحياة أو أعد الحياة إليه ، بعد أن أوردته بسهمى مورد الحتوف .

فلم يك إلا كلمح البصر حتى رأي الدرويش قد خرج من جسده ، فغادره جثة هامدة ملقاة على الصعيد ، وانسلّ فى جثة الظبي فتقمصها ولبسها وأحياها بروحه ، فأنهضها وإذا الظبي حَيٌّ يتنزى مراحاً ، ويتوثب طفاحاً ، حتى أقبل على الملك يتمسح به ويحوم حوله ، ليثبت له أنه درويشه ونديمه وأنيسه ، وأنه لو كان ظبياً غير الذي أصماه الملك ، لأسلم سرابه للريح ، وتعلق بأذيال الفرار

ثم انبرى الظبي المبعوث للعشب والكلأ يرعاهما ما شاء . فاغرورقت عين الملك الطاهر الطاوية بالدموع على « غزاله » الذى كان منذ برهة نديمه وأليفه وعشيره . ولكن الظبي ما لبث أن خر إلى الأرض جثة هامدة ، وفى نفس تلك اللحظة تحرك جسد الدرويش بعد همود ، وبدت عليه دلائل الحياة ، ثم نهض كأصح ما كان وأنشط ؛ فأقبل عليه الملك يقبله وينهنئه وقد دهش من تلك المعجزة الخارقة وأقسم عليه بكل عزيز ورفيع ومقدس ، إلا ما لقّنه هذا السر العظيم . فاعتذر الدرويش وتأبى وادعى أن شيخه البرهمى لم يأذن له فى تلقينه أو البوح به دون سابق رياضة ومران ، فإن مثل هذا السر ليس بالشيء الهين ... وما زال كذلك حتى بدأ مولاه يتذلل إليه ويهون لديه ، فوقف عند هذا الحد من التأبى والتيه ، وماعتم أن أذعن ثم لقنه سر الآية مضمناً لفظتين بالسريانية . وأراد الملك أن يجرب المعجزة لتوه وساعته . وكانت جثة الظبى لا تزال طريحة على الثرى ، فعمد الملك نحوها وتلا اللفظتين ، فما هو إلا كلمح البرق حتى انتقل روحه إلى جثة الظبي وخر جسده إلى الأرض ميتاً

فى تلك اللحظة أقبل الدرويش الخائن على جثة الملك وهى خلاء من الروح ونقل إليها روحه بسرعة

البرق الخاطف وتناول قوس الملك وكنانته وسدد سهمه إلى شخص الظبي المشتمل على روح الملك يريد إصابته وإعدامه ، حتى إذا زهقت روح الملك من جثة الظبي بهذه الكيفية ثم لم تجد جسماً تلتجئ إليه ، ذهبت بطبيعة الحال إلى عالم الأرواح أو ذلك البرزخ الذي كان الملك يعجب لاختزان النفوس الفاضلة في أكنافه . وهذا هو الموت الزؤام بعينه . وبذلك يكون الملك قد مات موتاً لا مراء فيه ولحق بالأعراف أو عليين . وقد أصبح الدرويش هو الملك ولا يفطن أحد إلى حقيقته إذ كان يتقمص جسد الملك وصورته فيعود إلى البلاط ويحمل الأكرة والصولجان ويلبس التاج ويجر ذيول الفياء القرمزي ، ويقبض على أعنة الحكم ، ويتصرف في الدولة كما يشاء ، له الأمر والنهي والعزة والجلال . وقد أدرك الملك الحبيس في جثة الظبي هذه الحيلة البعيدة الغور ، وكشف له عن سر الدرويش الشرير وما كان يضمر له من سوء جزاء له على إحسانه إليه وبره به وتفضيله على رجال بلاطه وأهل حاشيته ، فخنق الملك الظبي وحرق الأرم ، ولكنه لم يكن يملك الانتقام من عدوه وهو في موقف الفريسة من المفترس ، والصيد من الصائد المسدد سهمه إلى جسده ليهريق دمه . ولكنه بدلاً من أن يذيب كبده غيظاً وعجزاً راغ من السهم ، فأفلت من شرك الردى وهام على وجهه في الآفاق... وكل الصيد في جوف الفرا . فاكتأب الدرويش هنيهة ثم أخذ في مطاردة مولاه والبحث عنه في الآكام حتى أعجزه التنقيب فعاد من حيث أتى راجياً أن يلقى الظبي حتفه على يد صائد آخر ، فإن الظباء السمينة قصيرة الأعمار

وعاد الدرويش في شخص الملك إلى قاعدة ملكه وعاصمته ، يترنح طرباً ويختال تيهاً ، فتناول الصولجان وتبوأ عرش الدولة . ولكي يأمن ضياع العرش المغتصب والتاج المستلب ، أصدر أمره إلى الرعية بإعدام كل ما تحويه الآجام من وحوش الظباء حتى يهلك فيما يهلك هذا الظبي الذي تقمصت فيه روح الملك الحقيقي . ولكن الأقدار أعانت الملك فأفلت من سهام الرماة والمتعقبين بتقمصه في جثة بلبل ميت كان قد بصر بها ملقاة على الأرض عند جزع شجرة تين مثمرة

وفي هذا التقمص الجديد طار الملك سالماً إلى بستان قصره الذي كان الدرويش يعمره مع الملكة وكانت تشعر نحو الدرويش المتقمص في جسد زوجها بنفور أوحته إليها الفطرة الشفافة والحس المرهف والنفس المشرفة بالنور الروحاني على بعض الخفايا فلم تبذل فراشها لروح غير روح زوجها . ولم تقبل على الدرويش الخائن يوماً .

هنالك وقع الملك البلبل على فنن أيكة بجوار نافذة الملكة وشرع يغرد ويرتل حتى هز برنين صوته أركان المكان ، وأرقص بشجا حنينه الغصون والأفنان ، وحتى فتن الملكة واستهواها ، فدنت إلى النافذة طرباً بألحانه واشتياقاً إلى نغمه . فأحزنه من الملكة أن رآها قد سرت بحنينه ، وابتهجت لأنينه ، وقد كان مراده أن يهيج أحزانها وأشجانها ويستثير رحمتها ورأفتها . وما كان أعظم ضيقه وألمه وهو عاجز أعظم العجز عن الانتقام من عدوه والاستمتاع بزوجته والعودة إلى ملكه . ويزيده كمداً أنه غير قادر على شرح حقيقة حاله لأقرب الناس إليه ، وهيهات أن يصدقه أحد حتى إن هو

ملك زمام النطق البشرى أو وهبته الطبيعة فصاحة سحبان وحكمة قس . فرضى من الدنيا بنصيبه الجديد ولبث ردحاً من الزمن ينعش نفس زوجته بالألحان فى كل صباح ، حتى استدعت صاحب طيرها وأمرته أن يبذل أقصى ما لديه من الحذق لاقتناص ذلك البلبل الصداح . غير أن (البلبل الملك) لم يحوج صاحب الطير إلى بذل أدنى مجهود لاقتناصه ، بل وقع فى يديه طائعاً مختاراً منتهزاً فرصة الأسر للدنو من زوجته

فلما عرض عليها ومعها حاشيتها من الوصائف اندهش الجميع لما رأيته ينفر منهن إلا الملكة فإنه سقط عليها يتمسح بها ويتشبث بأرديتها ثم اختبأ في جيبها ففرحت بما أبداه البلبل من التحبب إليها والتحدب عليها دون سواها ، وأمرت به أن يجعل فى قفص من الذهب المرصع بالجوهر فى غرفتها بشرط أن يبقى مفتوحاً حتى لا يشعر بضيق الأسر ولذلك جعل البلبل بفضل منزلته الجديدة وزلفاه ، يبدى للملكة من أساليب الملاطفة والمداعبة ماتسمح به طبيعته وخلقته . وجعلت الملكة تقضى الساعات العديدة الطوال فى مداعبة بلبلها وملاعبته؛ ووجد البلبل الملك سلوة وعزاء فى حاله هذه مع الملكة ... لولا ما كان يكدره أحياناً من دخول الدرويش عليها فى ساعات اللهو واللعب ومغازلته الملكة وهى تبدى نفورها منه وتغلق الأبواب دونه

وكان غاصب العرش (الدرويش) كثيراً مايحاول استجلاب مودة البلبل ، ولكن بلا جدوى ، إذ كان كلما ازداد تقرباً إلى الطائر ازداد الطائر منه بعداً ونفرة ، بل ربما أوسعه نكزاً بمخلبه ونقراً بمنقاره مما كان فيه ملهاة للملكة ومعجبة

وكانت الملكة أنوشروان كلفة أيضاً بكلب مستأنس يبيت معها فى حجرتها ، وكان صديقها الأبكم وتابعها الأمين ، ومازال لها ولياً وفياً ولذكرى زوجها حافظاً حتى كان يشاركها النفور من الدرويش المتخفى فى جسد الملك . وكان الكلب بحكم الاختلاط قد ألف رائحة سيده وميزها من غيرها ثم تعود رائحة الدرويش مذ كان يغشى القصر على صورته القديمة . فلما وجد فيه رائحة لا تشبه تلك التي تعود شمها راح يعطس وينبح ولا تهدأ ثائرته حتى يفارق الدرويش غرفة الملكة . والكلب أقوى شماً من الانسان ، ولهذا كان أعرف باختلاف روائح الناس من الناس أنفسهم . فاتفق أن مات هذا الكلب ذات ليلة وأهل القصر كلهم رقود إلا البلبل الذى أبصر موت الكلب ، تاقت نفسه إلى التقمص فى جثته ثم ما لبث أن صنع ذلك فترك جثة البلبل وأحيا جثة الكلب التي حلّ فيها

فلا تسل عما أصاب الملكة من برحاء الوجد وحرقة الكمد عند ما استيقظت صباحاً فرأت حبيبها البلبل ميتاً وكان سلوتها وعزاءها . فانفرط بموته وانقطاع صوته عقد هنائها ونفدت البقية الباقية من صبرها

فاستدعى الملك الكاذب (الدرويش) وصائفها وأقبل معهن يحاول إقناعها ببطلان حزنها ، لأمر تافه كهلاك طير حقير . ولكنه عبثاً حاول وحاولن . وجعلت الملكة تبكى وتندب بما أذاب من كبد الدرويش رحمة بها ورثاء حتى وعدها أن يرد الروح إلى بلبلها . فإنه مازال يطمع فى رضاها ، وتحدثه نفسه الخبيثة بعدم اليأس من خداعها ، حتى ينال منها مأربته وهو فى نظر العالم كله زوجها إلا فى

نظره لعلمه بحقيقة أمره ، وفي دخيلة نفسها لشعورها بالنفور منه .

وقال لها : ولكن علينا أن نتفاهم أولاً قبل أن أخطو هذه الخطوة الخطيرة ، برد الروح إلى بلبلك الذى تؤثرينه علىّ .

إن ما أخذته عليك فى عهدنا الأخير من طبيعة الصخب والقسوة وميلك إلى مخاصمتي والتبرم بى وإرسال الزفير والشهيق ، وسكب الدموع ، لما يحزن النفس ويدميها ، ومما يدعوني إلى اتهامى إياك بسوء الخلق وحب الشر ، ولم يكن هذا عهدى بك منذ خرجت إلى الصيد وفقدت نديمى ذلك الدرويش المسكين الذى جندلته بسهم خاطئ أصاب أحشاءه فمزقها .

فقالت له : إن بعض هذه الطباع التى تكاد تسخطك وتحملك على اتهامى بسوء الخلق وحب الشر إنما هى ثمار أنتجتها نفس هذه التربة التى أنتجت الحلو الطيب من المحاسن ومحامد الصفات كالرحمة والحب والرقة ، فإذا رأيت الضدين من الخلق الغامض حيناً ، ومحمود التضحية وخالص الوفاء أحياناً ، فلا تحسبن هذا التناقض مظهراً من مظاهر العناد الكاذب والاستبداد الباطل ومحض الدلال والتجني . وعليك أولاً أن ترد روح بلبلى إليه .

فوعدها بذلك وعد الواثق ، فحبست طوفان دمعها وتساءلت مندهشة : أنى له ذلك ؟ ولم تعهده من قبل يرد الأرواح ويعيد الموتى إلى عالم الأحياء حتى ولو كانوا طيوراً ، وإن ملك هذه الموهبة الخارقة ، فلم لم يرد روح درويشه العزيز الذى كان يؤثره على كل من عداه من الندمان والبطانة ؟

ولكن الملك الكاذب لم يجبها ، غير أنه انطرح على مقعد ثم أرسل روحه فى جثة الطائر فعاش باذن الله المحيى المميت المبدئ المعيد . وبلغ العجب من الملكة أقصى مبالغه

وكان الملك الحقيق برى ذلك كله بعينى الكاب الذى تقمص جلالته فى بدنه ، فما كاد يبصر الدرويش قد خرج من جسمه (وهو الجسم الذي كان الدرويش يختال فيه مذ تقمصه فى الغابة يوم الصيد) حتى خرج هو من جثة الكلب كالسهم المارق ، فاسترد جسمه قائلا : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ثم هجم على البلبل الكاذب (المتضمن روح الدرويش) فلوى عنقه وقصف رقبته

عند ذلك عاودت الملكة بكاءها ونحيبها ، ولكن زوجها الملك ما لبث أن أفهمها حقيقة الأمر من أوله إلى آخره مؤيداً قوله بحجتين دامغتين الأولى جسم الدرويش الذى مازال متروكا فى الغابة ، والأمر الذى أصدره الدرويش باعدام جميع ما احتوته البلاد من ظباء الوحش . وهكذا تنعم الملك بزوجته بقية العمر في رغد وصفاء .

محمد لطفى جمعة

من أحسن القصص

غيرة

للكاتب الفرنسي سولومون جسنار

بقلم محمد عبد الفتاح محمد

لا ريب أن الغيرة هي أخبث العواطف جمعاء بين الناس ، وأسرعها تشبثاً بالصدور وأقواها على التعلق بالأفئدة ؛ بل هي كالأرقم ينفث السم بوخز من الناب بسيط ، وكالعقرب تسرح الهلاك بضربة من ذنبها الواهي الضعيف . ويرى القارئ في هذه القصة كيف تستبد هذه العاطفة الخبيثة بالمرء فتقيمه وتقعده ، وتفعم حياته بالبؤس وتترع قلبه باليأس ، وتعرض على صفحة ذهنه المضطرب صوراً متتابعة من الوساوس والأوهام

كان « أليكسيس » فتى ذا مرة ، غريض الشباب ، بادي الفتوة ، أسمر الإهاب ، يزخر بالرجولة الناضجة الكاملة ؛ وكانت « دافن » كاعباً فتانة ، ساحرة ريانة ، مياسة كالغصن ، مشرقة كالبدر ، طاعمة كالزنبقة ، وقد تعاهدا على الوفاء في الحب ، وأقسما على الاخلاص في الهوى . لذلك أترعت « فينوس » مع سائر ربات الحب كأس حبهما بالسعادة والهناءة ، فراحا ينعمان بحياة رغيدة وعيش مخفرج في ظل غرامهما العذري الفياض

وإذ تماثل أبو أليكسيس للشفاء من مرض عضال كاد يعصر عوده الواهن ، ويطفئ سراج حياته الخافت فقد استدعاه يوماً وقال له :

— بني العزيز . إن لربة الصحة علي لنذراً : ستاً من الشاء الكناز فاذهب بني بها إلى معبدها وقدمها قرباناً على مذبحها

وكان المعبد يبعد بمسيرة يومين متتابعين ليس غير . بيد أن أليكسيس وقف من حبيبته موقف النازح إلى سفر طويل دونه المحيطات والبحور . وبالدمع السخين يسح من عينيه ، والحزن العميق يرتسم على شفتيه ، بدأ سفرته والشاء أمامه تدب دبيبها المضطرب البطيء . سار يتنهد تنهد المحزون ويزفر الزفرات الحرار . فمضت أشجار الصفصاف على طول الغدير تشاركه التأوه والأنين ، ومر بالمناظر التي حوله من سندس جميل منفر بأفواف الزهور الفواحة المعطار كأنه حالم لا يأخذه سحرها ولا يناله عبيرها . وكيف ينتبه إلى تلك الجنان وهو هكذا حزين النفس جريح القلب مكلوم الفؤاد ؟ وهل لمن كتب عليه النوى عن حبيبه والبعد عن أليفه أن يفكر في غير هواه ، وأن يحس سوي الحنين إلى ليلاه ؟ وهل يرى العاشق المدنف الصب المتيم في كل ما يرى من جمال الطبيعة وسحر المناظر إلا وجه حبيبه النائي يزيد في ألاهيب الحب ويسجر نيران الغرام ... كان يراها إبان سيره وحيداً مع غنمه ... كان يراها في جوسقها ناعسة وسنانة ، أو مضطجعة يقظانة في ظل صخرة مشرفة على الغدير الرقراق . بل كان يسمعها تناديه وتردد اسمه . وبعث التفكير والخيال في قلبه نار الجوى ، فتنهد . وظل

هكذا حاله وهو يسير وراء غنمه . ولم يكن لينتبه من هذه الأفكار ويثوب إلى نفسه إلا ليلمن هذه الشاة البطيئة المكسال . وود لو كانت طيراً يطير أو غزالا يطوى الأرض طياً . وأخيراً بعد طويل من التفكير والسير وصل إلى المعبد المقصود

ونحرت الغنم وقدمت الأضاحى ، فعاد من حيث أتي طائراً على أجنحة حبه العظيم . وبينما هو يجد فى السير على أرض حطيبة . تقحّمت شوكة قدمه وانغرزت فيها فسبّبت له ألماً شديداً قعد به حتى عن الحبْو إلى الكوخ الجاثم على كثب منه . والتقطه زوجان طيبا القلب وتوليا علاجه من جرحه الدامى الأليم ببعض الأعشاب البرية بينا دأب هو على أن يتمتم بين الفينة والفينة ؛ « ياليؤمى وشقائى ! » . وأخذ يستبطئ الساعات ويتعجل الدقائق ، ويناشد الشمس أن تحث السير نحو المغيب، حتى إذا مادلكت راح يضرّع إلى الليل أن ينجاب وينجلى . ولم يكن ذلك وحده هو الذى أقض مضجعه وأقلق باله ، بل راحت بعض الآلهة العتاة القساة ينثرون فى قلبه بذور الغيرة . فجاشت فى قلبه الوساوس وتقلب على فراش حشْوه الفكر والهم . وطفقت الأوهام تُوغل فى رأسه القلق الحيران ، وراح يقاول نفسه فى تمتمة أشبه بالهذيان :

« إيه أيتها الآلهة : ما هذه الأفكار السوداء ؟ أتغدر بى دافن ؟ محض وهم وافتراء ... ولكن المرأة هى المرأة ... ودافن جميله حُسّان ... من ذا الذى يراها ولا يشتهيها ؟ من ذا الذى لا يسبيه دلّها وتجنيها ؟ . . ألم يدأب جارها « دافيس » على التقرب منها والتغزل فيها ؟ . . وهو لا نكران وسيم جذاب ، لهصوت مُرِنّ خلاب، إذا ما تكلم سحر ، وإذا ما أنشد وتغنى بهر ، وإذا ما عزف على قيثارته مَسّ أوتار القلوب ، وهز كوامن الشجون ، وبعث إلى الأفئدة الحنين إلى العشق والهيام . ثم إن بيته مُلاصق لبيتها ولا يفصلها عنه غير الجدران ... يا للوغد الجميل لقد شغفها حباً ... أوه . . ذرينى أيتها الأوهام الباطلة . . دعينى أيتها الأفكار الآثمة . . »

ولكنْ تعمقت جذور الغيرة فى ذهنه وأترعت سمومُها شغاف قلبه ، ودفعت السحاب الثقال والغيوم الكثيفة إلى سماء حبه اللازوردية الصافية ، وسلبته الراحة والهناءة آناء الليل وأطراف النهار . ففى أحلامه بالليل،وفى تخيلاته وأوهامه بالنهار، كان يرى حبيبته تخطر كنسمات الصبح المنوّر ، وتميس كالغصن الفينان ، نحو الغدير ذى الخرير، تحت ظلال الأشجار الشجراء اللفاء لتقابل دافيس الذى يروح يغنى للقائها بصوته السماوى الساحر فيشنف أذنيها بحلو أنغامه ، ويطرب سمعَيْها برخيم ألحانه ... ورآها بعين الغيرة تبثه ما تجنه له من الحب عن طريق لحظها الفاتر، وتشرح له هواها بلغة العيون السواحر، وصدرها الناهد الأثيم يعلو ويهبط مع أنفاسها اللاهثة التى تعبر عن شدة العشق الدفين . ورآها كرة أخرى نائمة تحت ظلال الأغصان الوارفة النشوى بينا يدب دافيس دبيب السارق فى جنح الليل الغاسق فيقترب منها ويقترب حتى يطوق بصره بدنها الطرى الفينان فيتأمل جمالها الوسنان ويتملى من حسنها الفتان ... وينحنى عليها ثم يلثم يدها فى توْق فلا تنتبه، فيقبل خدها فى شوق فلا تفيق، فينهال على فمها الوردى فى حرارة ووجد فلا « تستيقظ »

هنا يصرخ اليكسيس بأعلى صوته : « يالى من بائس مسكين ! ما هذه الأفكار السود التى يخلقها خيالي ؟ لماذا أرانى لا أحيد عن هذه الأفكار قيد أنملة ، ولا أراها تفك أسارى مقدار لحظة ؟ لماذا أشق نفسى بهذا الوهم الباطل وتلك الصور الزائفة التى أتهم بها طهارتها وأنال بالإيقال فيها من إخلاصها ووفائها ؟ »

وتصرمت ستة أيام طوال ولما يلتئم جرحه بعد ، فلم يستطع الصبر أكثر مما صبر ؛ وعبثاً حاول الزوجان أن يثنياه عن السفر .. فواصل رحلته بعد أن عانق مضيفيه وشكر لهما صنيعهما . . واصل السير على قدر ما سمح به جرحه الحى .. وكان الليل قد وقب حينما انتهى إلى حيث يقوم مثوى حبيبته الغالية . وكان القمر الزاهر يترجل رويداً رويداً فيلقى بضوئه الناعس على الأرض الشجراء .. وقاول نفسه وهو يغذ السير نحو الحبيبة : « إليك عنى أيتها الأفكار القواتم . هاهى ذى حياتى تنتظر أوْبتى . وسأسكب دموع الفرح الندية للقياها ، وأضمها إلى صدرى الظامئ اللهفان » وفى ممشى حديقة بيتها رآى طيفاً يتثنى تثنيها فتمتم : « إنها هي .. هى دافئ بذاتها . فهذه قامتها المهيبة ، ومشيتها البانية الرائعة ، وثوبها الأبيض الهفهاف .. إنها هى أيتها الآلهة .. ولكن أيان تذهب وقد غسق الليل ؟ ليس من سداد الرأى أن تخرج عذراء وحيدة إلى هذا المكان الموحش فى ذلك الليل المغطش . ألا تكون قد خرجت للقائى ؟ بيد أنه رآى شبحاً يسير وراءها حتى لحق بها .. شبح رجل .. ثم سمعها تضحك وهى تتناول يده فى يدها وتأخذ منه سلة الزهور فتعلقها فى ذراعها الأخرى ، والآن هما يسيران حنباً إلى جنب تحت ضوء القمر الشاحب الحزين كأبدع ما يكون عاشقان

وتسمر اليكسيس فى مكانه يرتعد من الرأس إلى القدم ، وراح يفكر : «ماذا أرى ! إذن فقد صدقتنى الآلهة .. وتحققت أوهامى .. إذن لقد أعدتنى الآلهة الرحيمة العادلة للصدمة فأحاطتنى بكل شىء علماً .. يالى من بائس تعس ... أين الريبة التى ألهمتنى تلك الحقائق؟ هلمى أيتها الإلهة فساعدينى على الانتقام، على الانتقام من ناكثة العهود . . الغادرة الكنود هلمى فاسحق هذين الخائنين ثم عقبى بى أنا الآخر

وتأبط الشاب ذراع الفتاة وسارا تحت ضوء القمر متجهين نحو جنة من الآس والبنفسج حيث يقوم تمثال فينوس .. سارا يتناقلان الحديث ويتجاذبان الكلام بينا طفح وجهها بمعانى السعادة والغبطة .. وقال اليكسيس فى نفسه : « آه : إنهما ذاهبان إلى جنة الآس حيث تساقينا — أنا وهي — كؤوس الحب مترعة .. حيث باحت لى بسر قلبها، وأسكرتنى بخمرة حبها . ها هما يدخلان إلى الحرج .. لقد غابا عن بصرى .. لعلهما الآن فى ظل شجرة يتناغيان ، أو على ضفة الغدير يتشاكيان .. ولكن لا .. لقد عادا إلى الظهور ثانية . إنى ألمح فستانها الأبيض ينعكس عليه ضوء القمر من خلال الفروع والأغصان .. لقد توقفا عن المسير إذ أتيا على بقعة سندسية يكسوها العشب الطويل والحشائش الكثة النامية .. يا للخيانة والغدر .. كيف لعمرى تسمح ربة الحب لهذين الغادرين بتدنيس جلال الليل الساجى وجمال القمر المتبلج الزاهر .. بلى .. إجلسا يشهد القمر خيانتكما وغدركما ، وتنصت النجوم إلى كلمات الحب الآثم التى بها تتناجيان .. ألا لعنة الشيطان عليكما .. ولكن ما هذا ؟ .. أبلبل يغرد وحمام

يسجع وأطيار تشدو ؟. وكيف ذلك وفى تلك البقعة الطاهرة يجلس هذان الدنسان الفاجران !. أراهما يتحركان .. أجل ، إنهما فى سبيلهما إلى معبد فينوس . سأمضى فى أثرهما فأنصت إلى حديثهما وأقتص حركاتهما

واتخذ سبيله وراءهما لا يلوى على شىء، واقترب منهما فى حذر حتى أصبحا قاب قوسين أو أدنى من أعمدة المعبد الرخامية التى تشق الفضاء ... وعاد إلى تمتمته «ماذا !! إنهما يدخلان ... أو هل تسمح الربة أن تبارك هذين الفاسقين » ... ورأى الفتاة تنزل الدرجات القليلة وفى ذراعها سلة الأزهار ... بينما استند الشاب على أحد الأعمدة ينظر إلى « فاتنته » ... واقترب اليكسيس خلسة إلى ظل عامود ووقف ثمة يتربص ويتجسس . رأى دافن تبلغ تمثال فينوس الذى يقوم هناك في حلته الرخامية الناصعة تحت ضوء القمر الشاحب ، والذى بدا كأنه تراجع ثمة ازدراء لتلك النظرات الحيرى التى شعت من عيون هذين المجرمين اللذين تقحما معبده للتضحية على مذبحه ... وجثت دافن تحت قدمي التمثال حيث وضعت ما تحمل من الأزهار النضيرة والورود الفواحة ، وراحت تتمتم بصلاة حارة بين نشيج يهزها ودمع يخنقها « إصغى إلى صلواتى واستجيبى لدعائى أيتها الربة الرحيمة العادلة ... واقبلى هذه الزهور التى أقدمها قرباناً على مذبحك ... وإن ندى الليل الذى يبللها لممتزج بدموعى الغوالى ... ها قد تقضت ستة أيام سوياً مذ نأى عنى اليكسيس الحبيب ... أوه ! أى فينوس الحلوة الطيبة . أسألك باسم هاته الأزهار التى أضحى بها على مذبحك المقدس أن تصونيه وترعيه وتهديه سواء السبيل ، وتردديه إلى ذراعىّ سالماً من غير سوء . وتبعثيه إلىّ محباً مخلصاً وعاشقاً وفياً كما تركنى .. آمين .. آمين ..»

وأصغى اليكسيس إلى صلاتها فى ذهول وتعجب ... هنالك فقط سدد نظرة فاحصة إلى الشاب الذى معها . وكان آنئذ فى وضع بدا فيه وجهه تحت ضوء القمر ... لقد رأى الحقيقة الآن! وما الشاب إلا أخو دافن ... وقد رافقها ولا ريب فى مجيئها إلى المعبد لعلمه أنه من الخطر على عذراء رعبيب مثلها أن تخرج وحيدة فى ذلك الليل المدلهم الداجى

وبرز اليكسيس من مخبأه ... ففاض الفرح على دافن لرؤيته ... وامتلأ فؤاده هو بالسرور ... والخجل أيضاً ... وتعانقا طويلاً ... ثم اتجها إلى الربة ثمة يصليان ويشكران

محمد عبد الفتاح محمد
بالساحة والناجم بينها

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الالمانى

الطبعة الجديدة

ترجمها : أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنها ١٥ قرشاً

حاجى بابا فى انكلترا

تأليف جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل العاشر

علم الفلك عند الفارسيين وعند الانكليز

عند ما مضى تأثير الدهشة الأولى دخلنا الغرفة المعدة لجلوسنا فوجدناها فاخرة الرياش محلاة بالصور وعلى كل حائط منها مرآة فى إطار مذهب؛ أما الأتباع والخدم فقد جلسوا فى غرفة أخرى وعلقوا مسدساتهم وسيوفهم على حوائطها

وعند ما حان وقت النوم اختار كل منا سريراً يلائم ذوقه لاختلاف أنواع الأسرة كما تقدم. ولست أريد أن أذكر ما أصاب كلا منا من الدوار والقىء وغير ذلك من متاعب البحر

استيقظنا فى الصباح فلم نر البر فدهشنا وفزعنا لانقطاعنا عن العالم. وكان نظرنا مهما امتد لا يقع على غير الماء. فأين طهران وأين أصفهان وأين الاستانة؟ أين الجبال وأين السهول؟ لا شىء من ذلك يبدو لنا غير الأمواج المترامية، وشككنا فى إمكان الوصول إلى انكلترا لأننا لا نعرف مكانها ولأنه لا يظهر لنا فى الماء أى دليل نهتدى به. ثم لما قيل لنا إن انكلترا ليست إلا جزيرة فى وسط بحر كهذا زادت دهشتنا وقلنا إنه يستحيل أن يكون بها حكومة منظمة أو شاه قوى. ويستحيل أن تجبى بها الضرائب أو تصدر الأحكام. وقد تساءلنا عن بعض ما بدا لنا من الخواطر فظهر لنا أن القوم لا يفهموننا ولا نفهمهم، فقد قالوا إنهم يعرفون من علم الفلك نوعاً يدلهم على اتجاه السفن، وبمين المسافات بين بعض البلدان وبين بعضها الآخر، وبين موقع كل منها بالنسبة لغيره. مع أن علم الفلك كما نعرفه يدل على الطالع الحسن والطالع المنحوس ويبين الساعات الموافقة للحجامة والسفر والزواج والحروب

وقد ظهر لنا أن علم الفلك عندهم سهل، فان الصبيان الذين فى السفينة كانوا يستعملون ما يشبه الاسطرلاب عندنا ولكنهم لا ينصبون خيوطاً. ثم هم يقولون فى الحال نتائج بحثهم بهذه الآلة. والعجيب هو تعلمهم شيئاً من هذا العلم فى مثل هذه السن لأن الفلك عندنا وإن كان مخالفاً لما يعرفونه عنه فهو صعب جداً لا يحيط به إلا طوال الأعمار الذين قضوا فى تعلمه عشرات السنين

وقد أمر السفير صاحبنا « محمد بك » بأن يبين لنا موقع أصفهان على طريقتهم فقال: إن النجوم تغيرت وإنه لم يعد فى وسعه مزاولة العلم الذى تعلمه على ميرزا قاسم فى أصفهان، وقال: إنه لم يعد فى وسعه حتى ولا استقراء الطوالع

تألم السفير من ذلك ألماً شديداً لأنه كان يريد تعاطى الدواء، فكلف شاباً من البحارة الانكليز أن يبين له بما يعرفه من علم الفلك هل تعاطى الدواء فى هذا الوقت مناسب أم لا؟ ففتح الانكليزى فمه وعينيه كالأبله وقال: إنه لا يدرك الصلة بين الدواء وبين

« التليسكوب » وقال ان الحساب الذى يجريه ليس بحروف الجمل عن أسماء الأشخاص ولكنه عن خطوط الطول وخطوط العرض على سطح الكرة الأرضية

فلم نفهم قوله ولكننا نسبنا غموضه إلى جهله وزاد احترامنا لمحمد بك وسائر علماء الفلك فى فارس

لكن الفلكيين الانكليز من بحارة السفينة أدهشونا بدقتهم الغريبة فى معرفة الأبعاد ، فانهم نظروا بآلاتهم الفلكية وحددوا الساعة والدقيقة والاتجاه اللواتي تظهر فيها اليابسة وقد صدقوا فى تحديد كل ذلك . ولما جددوا بذلك فى نفوسنا شيئاً من الثقة بهم كلفنا محمد بك بمباحثتهم في علمهم الفلكى ، فأجابوا بما قضى على تلك الثقة بتاتاً حيث زعموا أن الأرض كروية وأنها متحركة وأن الشمس هى الثابتة وأن القمر يدور حولها . ونحن نعلم عكس ذلك على خط مستقيم من أيام (جمشيد) . وختم محمد بك مجادلتهم بقوله : إنه لو كان الآن فى فارس لاستطاع أن يأتى لهم بالكتب التى يقنعهم بها

الفصل الحادى عشر

فى مالطة

فى الصباح التالى وجدنا السفينة الحربية التى تقودنا إلى شاطئ جزيرة « مالطة » وأخبرنا المترجم أنه كان يقيم في هذه المدينة جماعة من الدراويش النصارى في عهد حروب قال لنا إن اسمها الصليبية وإن الشرق اشتبك فيها مع الغرب . وقال إن المسلمين احتلوا هذه الجزيرة فى وقت من الأوقات وقتلوا من فيها من الدراويش

وقال إن للدراويش الذين تقدم ذكرهم مذهباً خاصاً فى الدين فهم لا يتزوجون طول الحياة

ولما أشرق النهار ونظرنا إلى الجزيرة وجدنا صوراً جديدة لكل مظهر من الحياة ، فالأبنية غير التى نعرفها ، والنساء غير النساء ، والرجال غير الرجال ، وهلم جرا

وسمعنا فى الصباح أجراساً تدق دقات عالية متوالية ، فحسبنا قافلة كبيرة عندهم تهم بالسير ، ثم قيل لنا إن هذه الأجراس عندهم بديل من الأذان فى مساجدنا ، وذكرنا إسماعيل بك بأن مثل هذه المعابد ذات الأجراس موجود فى قرى البلاد الأرمنية

وبعد وقوف السفينة على الشاطئ تبودلت التحيات بينها وبين إحدى قلاع المدينة باطلاق المدافع ، ثم قيل لنا إنه غير مسموح بالنزول إلى المدينة لأن البلاد التى نحن آتون منها بلاد غير نظيفة . فأخذتنا العزة وقلنا لهم إننا آتون من بلاد إسلامية وإننا لا نسمح بوصفنا بهذا الوصف . فأجابنا الربان جواباً لم نفهمه أيضاً إذ قال إن عدم النظافة هو المرض وإن فى الهواء ببلاد الترك حيوانات صغيرة جداً تجعل من يستنشق هذا الهواء غير نظيف . فلم يقنعنا هذا التعليل غير المعقول وطلبنا إعادتنا إلى فارس احتجاجاً على هذه الاهانة أو السفر بنا فى الحال إلى بلاد الفرنجستان

لكن السفير عاد فقال : « إننى مع استيائى من هؤلاء الانكليز أرى أن عوائدهم بعيدة جداً عن عوائدنا وعقلهم ليس كعقلنا فينبغي أن نعذرهم وينبغى كذلك أن ننفذ أوامر الشاه كما هى . وقال لنا ليرضينا إن ترجمة مايقوله الفرنجستان عن الحيوانات الهوائية أن فى بلاد الترك عدوى الطاعون

وأنهم يخشون أن تنقل العدوى إليهم . وقال إنهم لكفرهم لا يسلمون الأمر لله ويعتقدون بوجود العدوى .

وقال لنا المترجم إن المرضى بالأمراض المعدية فى داخلية البلاد يحجزون فى أماكن أحصن من السجون ، وإن الذى يحاول الفرار من بينهم قد يرمى بالرصاص كما يفعل بالأسير الهارب . ومن هذا القول فهمنا أنهم يعاملون المرضى مثل معاملة المجرمين وليس هذا أول شىء غريب بدا لنا من جانب الأوربيين

لكننا عولنا على الرضى فيجب علينا نحن أن نؤمن به فلا نحارب القضاء الذى شاء تأخيرنا أربعين يوماً فى الحاجر

وفى فترة التأخير زرنا السفينة الكبيرة التى تحرسنا فراعنا كبر حجمها ومدافعها وكثرة هذه المدافع ؛ واعتقدنا أن إخواننا الفارسيين لن يصدقونا عندما نقول لهم إن بالبحر سفناً بهذا الحجم وهذه المناعة . وقلنا مادام هذا هو استعدادهم الحربى فلا غرابة إذن فى امتلاكهم الهند . ولم نكد نصدق — وهذا هو وصفهم — أنهم يخضعون لحكم سيدة ويعترفون بها ملكة عليهم .

وكان بجوار السفينة سفن أخرى كثيرة محجوزة لأنها غير نظيفة . ولاحظنا اهتماماً فى تلك السفن بسفينتنا ، فقد كان كل من فيها يحاول النظر إلينا ؛ فلما سألنا عرفنا أنهم علموا أن بيننا سيدة شرقية بثيابها الوطنية فأرادوا أن يروها وهى بتلك الثياب . ويظهر أن القوم يعدون ثياب نسائنا من الأعاجيب .

وكانت الشمس طول هذا الوقت لم تنتقل من الركن الذى أجلست به عند صعودنا إلى السفينة ولم تنطق بحرف مدة السفر إلا عندما وقفت السفينة فى مالطة فعند ذلك سألت عن علة الوقوف .

وفى أثناء هذه المدة زارنا حاكم المدينة وحيا السفير . وأشار إلى العلم الأصفر الذى يرفرف على المحجر وأبدى علائم الاعتذار ، وأفهمنا المترجم أنه يعرب عن أسفه لاضطراره إلى حجز السفينة وأنه لولا ذلك لسُرَّ من زيارتنا إياه ولأرانا المدينة وما فيها من المعاهد والآثار

وقال لنا إن نظام المحاجر لا يمكن التساهل فيه ، وإنه لو كان الملك نفسه آتياً من بلاد ملوثة لما استطاع مخالفة نظام المحاجر . وقال إن وصف البلاد المصابة بالعدوى بأنها غير نظيفة لا يمس أهلها وأن الملائكة أنفسهم يعتبرون ملوثين إذا جاءوا من بلاد بها عدوى

ثم ختم الحاكم كلامه بالسؤال عن الأحوال فى فارس وعن صحة الشاه — وما إلى ذلك من الأسئلة . وقد رأى فيروز خان أن اللياقة تقضى بأن يرد على هذه الخطبة بخطبة مثلها فأكد للحاكم أن الشاه يتمتع بالسعادة الكاملة وأن جنوده جاءوا إلى قصره فى السلطانية بعشرين جملاً محملة برؤوس العصاة والمتمردين من خراسان ومازندار ، وأنه خرب قرى الثوار وقضى عليهم القضاء الأخير . والفضل فى الانتصار لخمسة وعشرين أميراً من أبناء الشاه قادوا جيشه فى هذه الحملة . وقال إنه يرجو أن يسر الحاكم بهذه الأخبار لما بين الدولتين من الود

ولكن ظهر لنا من مراقبة وجه الحاكم عند سماع هذه الخطبة أن دهشته لم تكن أقل من دهشتنا نحن من خطبته . وقد قال لنا المترجم إن الحاكم

مسرور من انتصار الشاه . وأخبرنا أن فى بلاده ما يسميه بالحرب الانتخابية وأن تأخيرنا فى المحجر كان فى مصلحتنا لأننا لو وصلنا إلى انكلترا قبل انتهاء هذه الحرب لما سررنا من الحالة هناك . وقال إنه يأمل أن يبشرنا قريباً بانتصار الشاه الإنكليزى على خصومه الذى سماهم الحاكم « بالمعارضة »

وقد أراد المترجم أن يشرح لنا معنى المعارضة فذكر أشياء لم نفهمها مثل قوله « الضمانات الدستورية والحقوق البرلمانية » وما إلى ذلك من ألفاظ لا معنى لها فى لغتنا، وكل الذى فهمناه أن هناك شغباً فى البلاد وأن الحكومة قد لا يكون مركزها وطيداً ، وأن أعضاء سفارة مثلنا لا يكون وصولهم ملائماً إلا عند وجود حالة مستقرة

ولكننا لم نفهم معنى قول الحاكم إن المعارضة تنهزم كل يوم ولكن أعضاءها لا يتفرقون ولا يقتلون . ولا أعرف كيف إذن يكون انهزامهم

والأعجب من ذلك أن المكان الذي تدور فيه المعارك مكان واحد لا يتغير ، اسمه (البرلمان) ويظهر أنه ميدان حرب

ولكن الحاكم استنكر أن تسيل الدماء بهذا الميدان .

وقال محمد بك يظهر أن الفرنجستان على غرابة أطوارهم لا يعرفون معنى للحكومة القوية فهم لذلك يتركون خصوم الشاه على قيد الحياة

ونظر الحاكم إلى سفيرنا وقال : « إنك بلا ريب ستعلمهم أنظمة الحكم الصالح فتساعد الشاه الفرنجستانى على التخلص من خصومه »

عند ذلك بدا السرور على وجه السفير الفارسى وفتل شاربيه وقال : « إننى على بركة الله سأعلمهم ما هم فى حاجة إلى تعلمه

ثم غادرنا الحاكم ونحن ننظر إليه مندهشين وهو مندهش منا أيضاً

الفصل الثانى عشر

السفينة الحربية

احتفل بنا قائد البارجة الحربية احتفالاً عظيماً عندما انتقلنا إلى سفينته . ومن عجائب هؤلاء القوم أنه قابلنا ورأسه مكشوف وقبعته فى يده. وقد أفهمنا المترجم أن هذه العادة عندهم دالة على الاحترام . ولم يكتف فى تحيتنا بالكلام بل أمر كذلك باطلاق المدافع .

وقد وجدنا عدد الجنود الذين فى هذه السفينة يكفى لتعمير مدينة من مدن الفرس . وكان فيها نساء قيل لنا إنهن يقمن ببعض الأعمال فى الحرب . ولا أعرف ما هي هذه الأعمال ولا أى شأن للنساء فى الحروب

وجىء لنا بالفواكه الشهية وبالأطعمة اللذيذة

وقال سفيرنا إنه لو كان عند الشاه سفينة واحدة مثل هذه لسحق روسيا سحقاً . وإن شاء الله متى وصلنا إلى انكلترا فاننا سنتعلم صناعة هذه السفن . ولن يكون ذلك صعباً علينا لأننا نحن الفارسيين لا نعجز عما يقدر عليه الأتراك ؛ ومادام الاتراك قد شادوا مثل هذه السفن وهم بشهادة العالم كله أضعف الناس ذكاء ، فاننا سنشيد أسطولاً بلا ريب

ثم عرفنا ربان السفينة الحربية بمساعديه ومن بينهم طبيب ، ومن بينهم أيضاً قسيس هو العلامة الوحيدة على تدين هؤلاء القوم الذين ينقضى النهار ووراءه الليل ولا نراهم يركعون ولا يسجدون

ولا يمتاز القسيس عنهم إلا بأن ثيابه سوداء . أما فيما عدا ذلك فهو يشبههم أتم الشبه ولحيته محلوقة وكذلك شارباه

وطبيبهم كذلك لا يلبس ثياباً تميزه ، ولكنه بغير ريب على جانب عظيم من العلم فانه لما جس نبضي ورأى لساني أشار لي بالدقة على مواضع الألم في رأسي . وقال لي إن في عينيّ ألماً وإنني قليل الشهية للطعام . ولقد صدق في كل ما قاله

ولما أعطاني الدواء وجدت ثمرته العاجلة وهو لا يكتب حجاباً ولا يستعين بعلم الفلك كميرزا أحمد الطبيب الفارسي

ثم نزلنا مع الربان إلى الطبقة السفلى من السفينة فوجدناها لا تنقص في الضوء ولا النظافة ولا حسن الترتيب عن الطبقة العليا . ووجدنا بها سيدة إنكليزية في نهاية الجمال . ولكن جمالها يخالف الجمال الذي نعرفه في بلادنا فإن شعرها أصفر مثل أسلاك الذهب ووجهها في استدارة القمر . ولم تحاول إخفاء وجهها عندما رأتنا . ولم يكن في يدها برقع ولا منديل تتقي به الأعين الناظرة لو هي أرادت ذلك . ولقد كلمتنا دون خفر ولا دلال كأنها رجل مثلنا . وأفهمنا المترجم أنها تسأل عن الشركسية فأجابها السفير أنها ليست إلا رقيقة وأنها لا ترجو أكثر من أن تترك في مكانها

وكان مع هذه السيدة سائح أبيض الشعر كثير التجارب لم نفهم الغرض من رحلاته إلا أنه يقول إنه يصيد الطيور والوحوش والأسماك . وهذا السبب الذي يزعمه لا يبرر إنفاقه النفقات الطائلة في الرحلات ، فلا بد أن يكون له غرض آخر يخفيه

وعندما وقع نظره علينا أخذ يصعد فينا نظره ويصوبه من الرؤوس إلى الأقدام كأننا مواشٍ يريد أن يشتريها . ولست أشك في أنه لو كان يستطيع امتلاكنا لفعل بنا ما يفعله بالحيوانات التي يصيدها ، فقد قال إنها تعرض في بلاده في حدائق عامة ليراها الناس

وكان معهما شاب قال لنا المترجم إنه « شاه زاده » أي ابن ملك من ملوك الفرنجستان في جزيرة تدعى صقلية ، ولكن ملك هذه الجزيرة وأمراءها قد طردوا منها ، فهم لذلك يتنقلون من بلد إلى بلد ويشتغل بعضهم بالتجارة والبعض لا عمل له . وقد اعتراني الدوار لما قلت في نفسي إن أبناء الشاه سيكونون كذلك جوابين في الآفاق إذا طردوا من بلادنا

وكان هذا الأمير متواضعاً لا يستطيع الانسان أن يعرف أنه أمير إذا لم يسمع عنه ذلك . وكان في صحبته أحد الوزراء

ومنذ ركبنا السفينة جعلت همي أن أتعلم اللغة الانكليزية فأخذت أسأل المترجم عن اسم كل شيء وكل مكان وأحفظ هذه الأسماء . وكذلك لاحظت أن السفير يحاول تعلم هذه اللغة بقدر الامكان . وكان في استطاعتنا أن ننطق ببعض كلمات انكليزية عندما قابلنا السيدة التي تقدم ذكرها في السفينة الحربية . فكانت تبتسم عندما ننطق بهذه الكلمات . وقد أدهشنا من أمرها أنها تحسن القراءة والكتابة وتفهم ما تقرأ كأي رجل من الرجال . ولكننا لم نعرف هل خطها بلغتها جميل أو غير جميل ، لأننا لا نعرف قواعد الخط الفرنجستاني . لكن الذي أستطيع أن أؤكده أن الخط الفرنجستاني قبيح في جملته لأن الخطوط عندهم كلها متشابهة ولأنهم يكتبون على عجل . ولم ألاحظ توقيعاً من

توقيعاتهم على شكل طغراء ، ولم أشاهد كذلك تركيباً جميلاً كالثلث عندنا ، وأغرب ما فى خطوطهم أنهم يكتبون من اليسار إلى اليمين . ويبتدىء الكتاب عندهم من آخره فى الجهة اليسرى .

وهذا الخلاف بيننا وبينهم ذكرنى بتقاليدهم البعيدة عن تقاليدنا في الطعام ، فإن آدابنا فى الأكل بسيطة خالية من التكلف . ولكن لا تسل عن مقدار دهشتنا عندما دعينا لتناول الطعام فى السفينة أول مرة .

رأينا على المائدة أنواعاً متعددة مما لا يصلح استعماله إلا فى الحروب : رأينا سكاكين من أحجام مختلفة وآلات تشبه السكاكين ، ولكن أطرافها كثيرة مدببة تدل هيئتها على أنها تستعمل فى السجون لقلع عيون المجرمين . ورأينا أصنافاً كثيرة من الأدوات على المائدة وعدداً جسيما من الأطباق

ولقد كانت السكاكين من الكثرة بحيث تكفى لتزيين جميع الأحزمة فى حاشية الشاه بدلا من الخناجر

وتوجد غير الشوك والسكاكين ملاعق كثيرة . وقد خطر ببالى أنه لابد من انقضاء زمن طويل فى تعلم طرق استعمال هذه الآلات لنقل الطعام بين الأطباق وبين الفم خصوصاً بالنسبة لأناس متقدمين فى السن مثلنا تعودوا منذ الطفولة أن ينقلوا طعامهم بأصابعهم إلى أفواههم دون احتياج إلى هذه الاسلحة الحادة

وقد أصر السفير على أن نسلك مسلكا يقلل من ضحك هؤلاء القوم علينا وسخريتهم بنا ، فأمرنا باعتياد عاداتهم . لكن أول تجاربه فى ذلك كاد يجر علينا خطراً مستطيراً ، وذلك لأنه ما كاد يمسك السكين ليقطع بها قطعة من اللحم حتى جرح أصابعه

وكنت فى أثناء الطعام أسهو فآخذ بأصابعى بعض القطع وأدسها فى فمى ثم أتنبه فأدور ببصرى لأعرف هل رآنى أحد وأنا أرتكب هذا الخطأ الذي يرونه لا يغتفر

ولاحظت أن لديهم آداباً فى الطعام تخالف آدابنا . منها أن أمام كل فرد على المائدة طبقاً خاصاً لا يجوز أن يأكل من طبق غيره ، وأنه ليس مسموحاً بالشرب من الزجاجة أو الآنية ولكن يسكب الانسان منها فى الكوب على قدر ما يريد . ولكل فرد كوب خاص به . وكذلك لا يجوز له استعمال الملعقة أو السكين أو الشوكة التى لغيره ولا أن يستعمل سكين الزبد فى قطع اللحم ولا سكين اللحم فى أخذ الزبد . وهم يعتبرون إمساك البطة أو الدجاجة بيد وقطعها باليد الاخرى جريمة شنيعة . ولهم طريقة خاصة فى قطعها بالشوكة وبسكين كبير . وليس من الآداب عندهم أن يقدم الانسان إلى جاره قطعة من اللحم . وبالجملة فقد رأيت متناقضات مدهشة لا يسعها هذا الكتاب وسأقصها على إخوانى متى عدت إلى إيران إن شاء الله

الفصل الثالث عشر

أعضاء السفارة يغادرون مالطة

أخيراً تحركت بنا السفينة من جزيرة الدراويش فرأينا البحر مملوءاً بسفن من أحجام مختلفة وكلها فى اتجاه واحد هو الذى نقصد إليه . وقد لاحظنا أنهم يستعينون بآلة كالتى نعرف بها القبلة يسمونها (البوصلة) وهم يقولون إنها تبين لهم الشرق والغرب حتى فى الليل .

وقد سمعنا أن كل السفن التى رأيناها محملة بالبضائع وأنها تقصد إلى بلاد الانكليز، فدهشنا وقال السفير للربان : « هل بلادكم مصابة بمجاعة أم الانكليز عاجزون عن صنع أى شىء لأنفسهم فهم دائماً فى حاجة إلى من يمونهم ؟ »

فأجابنا الربان بواسطة المترجم أن الانكليز ليسوا فى حاجة إلى كل هذه المتاجر ولكنهم تجار يقومون بين الدول بمهة الوسيط ، وهم صناع فهم يأخذون الخامات من بعض البلاد ثم يردونها إليها مصنوعة ؛ فلم يقنعنا هذا القول وأصررنا على أن بلادهم فقيرة . فقال لنا : إن هذه المهمة التى نقوم بها هي أشرف المهمات ، وإن المجد أن تبلغ أية دولة مثل هذه الغاية . واستشهد على صحة قوله بأرقام كثيرة . وقرأ لى قصاصات من الورق لم أفهم منها شيئاً

وبعد أيام قضيناها فى البحر وصلنا إلى صخور وراءها سهول واسعة . وقال المترجم ان هذه الصخور هى جبل طارق وإن البلاد التى وراء هذه الصخور كانت مملوكة للمسلمين فى وقت من الأوقات . وإن اسم طارق الذى سميت به الصخور هو اسم لأحد قواد المسلمين ، وقص علينا المترجم قصة طارق هذا وتحدث عن بلاد الأندلس، فعزمت على كتابة هذه القصة ونشرها فى إيران لأدل قومي على عظمة التاريخ الإسلامى

ولما استأنفت السفينة السير وجدنا أحد البحارة وهو شائب يضع على رأسه أصباغاً خاصة ليجعل بياض شعره سواداً ، فعجبنا من طريقته لأننا لا نعرف فى بلادنا شيئاً من هذا القبيل غير الحناء . لكن الحناء لا تعيد الشعر إلى لونه الأسود بل تجعله محمراً . أما الأصباغ الأخرى مثل النيلة الزرقاء فما لا يجوز صبغ الشعر به

وقد قدم ذلك البحار جزءاً مما معه من الصبغة إلى السفير ليصبغ لحيته إذا أراد ، فشكره على ذلك وسأله عن اسمها ليشترى من انكلترا شيئاً منها ويبعث به هدية إلى الشاه

ولكن لحسن الحظ لم يتبع السفير مشورة البحار ولم يصبغ شعره ، وقد وجدنا شعر البحار فى اليوم التالى شديد الاحمرار بدل أن يصطبغ بالسواد ، ولما سألناه عن السبب قال : إن رطوبة البحر أثرت فى الصبغة فأفسدتها ، ولذلك جاء لونها كذلك . ورأيناه شديد الخجل لأن الشعر الأحمر شنعة فى بلاده

ثم بدت لنا الأرض عن بعد فهلل البحارة . وبدا عليهم الطرب . وعلمنا أن هذه الأرض هى انكلترا . ولما اقتربنا منها لم نجد ذلك الإشراق الذى يجده الإنسان وهو مقبل على مدينة فى فارس . بل رأينا كسفاً من الضباب كسواد الليل كشف عن مناظر غامضة لأبنية ومناثر . وأدركنا عند ذلك علة ما نعرفه عن قلق الانكليز فى بلادهم وميلهم إلى الاسفار ، لأن الانسان بطبيعته لا يحب أن يوجد إلا حيث توجد حرارة الشمس وضوؤها . وقد حاول المترجم أن يقنعنا بأسباب أخرى لميل الانكليز إلى الاسفار ، وبالمصالح التى تقتضى ذلك فى أنحاء ما يسميه بالامبراطورية . ولكننا وجدنا هذه الأقوال تافهة لا يراد بها إلا التنصل من وصف بلاده بأنها غير صالحة للسكنى . ولم نفهم كلمات غامضة كثيرة كقوله « العلاقات الأجنبية . والتوسع الاستعمارى » ولعله يعنى بذلك غارات الحدود . وقد

أفهمناه أن ذلك لا يستدعى المهاجرة وأنه يكفى أن ترسل الحكومة الانكليزية بعض قبائلها لنهب المحصولات فى الجهات المجاورة واختطاف الرقيق والغنم والماشية

ولما أفهمنا المترجم الانكليزى ذلك أصر على عناده وأبى أن يفهم وأصر على أن النظم فى بلاده خير نظم فى سائر الوجود وعلى أنه ليس أحسن من حكومته وشاهه وقال : « انتظروا حتى تصلوا إليها فتروا بأعينكم ما لا تستطيعون إدراكه بالسماع ، وسترون هل فارس أكبر أم انكلترا ؟ »

الفصل الرابع عشر

أعضاء البعثة فى بلايموث

رست بنا السفينة أخيراً على الشاطىء . ولطول المدة التى قضيناها بالبحر لم يفكر أحدنا فيما اعتدناه من قبل من استشارة المنجمين . ولم يخطر ببالنا هل الساعة ميمونة أو غير ميمونة بل تأهبنا للنزول فى الحال . وقد أطلقت المدافع عند نزولنا ورفعت الأعلام . ولكننا لم نجد أحداً من قبل الحكومة فى انتظارنا فامتعض السفير فيروزخان

ولما أبدى هذه الملاحظة للمترجم قال إن العاصمة لا تزال بعيدة عن هذه المدينة بعد طهران عن اصفهان ، وقال إن المدينة التى نحن فيها هى بلايموث

كان يوم نزولنا من السفينة يوماً سعيداً لأننا والحق يقال لم نطمئن يوماً على أنفسنا قط ونحن فى البحر . وقبل نزولنا كلفنا أتباعنا بجمع أمتعتنا . وأعانهم البحارة على ذلك وحمل كل منا سلاحه فوضعه فى حزامه وحمل ذوو الرماح منا رماحهم وودعنا البحارة ورؤساءهم ومشينا فى المرفأ كأننا فصيلة من الجيش . ولكن الانكليز قابلونا بالابتسام الذى مظهره الترحاب وحسن النية وإن لم يخف علينا أنهم كانوا يضحكون منا

وكانت الشركسية تمشى وراء موكبنا بين « سعيد » و « محبوب » وقد استلفت أنظار الانكليز نساء ورجالاً فاحتشدوا حولنا أينما سرنا . والعجيب أنهم لم يلتفتوا مثل هذا الالتفات إلى السيدة الجميلة التى كانت معنا فى السفينة ، فاهتمامهم فى الحقيقة لم يكن بالمرأة من حيث أنها امرأة ، بل من حيث أنها محجوبة . ولاحظنا أن نظراتهم لنسائهم السافرات كانت نظرات عفيفة . ولقد ذكرت عندما خطرت ببالى هذه الحقيقة قول شاعرنا السعدى « إن الفاكهة الممنوعة هى أشهى الفواكه إلينا وأحبها » وقلت فى نفسى إن الشاه فى فارس يرسل المنادين فى الطرقات قبل نزول زوجته من قصره إلى مكان آخر منذرين بإخلاء الطريق ممن فيه ويقتل من يعصى الأمر . وذكرت أنه بالرغم من ذلك فانه لا يكاد يوجد رجل واحد من أهل طهران لم ينظر وجه الملكة خلسة من ثقب النافذة . ولكن هنا فى بلاد الفرنجستان تمشى ملكة الانكليز فلا ينظر إليها أحد غير النظرة العادية التى ينظرها الرجل إلى الرجل

ومما استلفت نظرى فى هذه المدينة عظم المبانى وكثرتها وحسن زينتها . ولقد قدرنا أن كثرة المارين فى الطريق سببها رغبة الناس فى مشاهدة سفير الشاه ملك الملوك إلى الملك الانكليزى . ولكن ساءنا أنه لم يتقدمنا فراش من قبل حاكم المدينة يطرد الناس من أمامنا كما فعلنا نحن عند ما وصل إلينا السفير الانكليزى . وأقول إنه لو كان بعض

الفارسيين ضحكوا من ثياب ذلك السفير يوم قدومه كما يضحك الآن بعض الانكليز من ثيابنا لأعدمهم الشاه إرضاء لضيفه أو لجلدهم إن رأى الضيف الاكتفاء بذلك

ولما خرجنا من المرفأ أعدلنا للترجم عربات لا تشبه العربات التي رأيناها في الآستانة لأنها كبيرة الحجم مريحة حسنة المنظر وفضلاً عن ذلك فلا تجرها الخيل بل يظهر أن بها آلات كالتي بداخل السفينة تساعدها على الحركة . وقادتنا هذه العربات إلى مكان قال عنه المترجم إنه خان . ولكننا لما رأيناه وجدناه أفخم من قصر الشاه

دخلنا فكان أول ما رأيناه عند الباب ردهة كالتي في قصر الملك بها مرآة عظيمة وآلة توضع عليها القبعات، ووجدنا سيدتين جميلتين على مكتبين مزخرفين وليس على وجههما براقع . ووجدنا رجلاً في ثياب أنيقة في استقبالنا فمررنا بغرف مقفلة لم نر أبواباً أجمل من أبوابها، ثم أرانا جناحاً به عدة غرف مخصصة لنا . وقال لنا المترجم إنه غير مسموح لنا بأن نصفق أو ننادي بهذا المكان . وأرانا نقيباً بالحائط فيه زر صغير قال إننا إذا لمسناه سمع البواب دقة الجرس بالقرب منه فيأتي . وفعلنا ذلك على سبيل التجربة

فلما تبينا صدق قوله تذكرنا القصص التي تقال عن بلاد الجن . وكان كل شيء أمامنا يبهر النظر حقاً فإننا في قصر لم يقم في مثله أي ملك من ملوك الفرس من عهد أنو شروان . ولا يرى الفارسي ولا في الحلم مثل الذي به من أسباب الراحة

ولما استرحنا قليلاً في غرفة الاستقبال جاءت فتاة انكليزية ساحرة الجمال وقالت لنا بواسطة المترجم إن أماكن النوم قد أعدت لنا ، فذهبنا اتراها ، ووجدنا لكل واحد منا غرفة خاصة . ولست أستطيع وصف الأسرّة فإنها لجمالها لا تكاد تختلف شيئاً عن عرش « الطاووس » الذي يجلس عليه الشاه في الأعياد . وقال لنا المترجم إن السرير الذي أعد للسفير قد اختير عن عمد من الأسرة المصنوعة على الطراز المغولي المعروف بعرش الطاووس

قال السفير : « لا إله إلا الله ! إن الحظ لم يكتف بإرسالنا إلى الفردوس حتى يجعل الحور في خدمتنا ! »

ثم حدثت حركة غير عادية في الفندق عند ما علم المقيمون به بوصول الشركسية فقد كان كل منهم شديد الحرص على أن يراها . ويظهر أنه لم يعتقد أحد منهم أنها ليست إلا جارية . ولذلك حيّاها الجميع كتحيتهم للسفير نفسه . حتى مترجمنا الانكليزي صار كأبناء جنسه يؤدي لها من الاحترام ما ليس من حقها وصار يطلق عليها كلمة « اللادي » ولما سألناه عن معناها عرفنا أنها تعني كلمة « الهانم » فاستاء السفير من هذا التعبير وطلب إليه ألا يعيده لأنه يعلم أنها جارية

ولقد كانت دهشة الانكليز عند رؤيتها أشد من دهشتهم عند رؤيتنا نحن حتى كان المقيمون بالأبنية التي أمام الفندق ينظرون من النوافذ لعلهم يبصرونها . وكانوا يتحدثون بأصوات عالية لم نفهم منها شيئاً ولكن أحاديثهم بغير شك كانت عنا وعنها

وقال السفير : « إذا كان الجواري يعاملن هذه المعاملة في انكلترا فكيف تعامل الزوجات ؟ لا غرابة إذن مع احترامهم للنساء أن يستنكفوا خروج الخصي مع إحدى الزوجات ليحرسها »

الفصل الخامس عشر

حاكم المدينة يزور السفير

كان « ميرزا فيروز » شديد الغيظ لأن أحداً من رجال الحكومة لم يأت ليزوره ، وقد كان ذلك أقل واجب له بعد أن أهملوا حفلة استقباله مع أنه يوم وصول السفير الإنكليزى إلى طهران أقيمت حفلة لأجله لا يقام مثلها إلا للملوك

ولم يخف السفير شيئاً من غيظه عن المترجم بل قال له فى صراحة : إنه آسف لمجيئه هذه البلاد التى لم يكن ينتظر أن يعامل فيها مثل هذه المعاملة وأنه مع اقتناعه باختلاف العادات فإنه يأبى أن يصدق أن إهمال الحفاوة بتاتاً من العادات الانكليزية

لكنه لم تطل إقامتنا بالفندق حتى أخبرنا المترجم بأن حاكم المدينة آتٍ لمقابلتنا . ولقد جاء وحده لا يصحبه أحد من رجال حاشيته ولا يتقدمه الفرسان ولا حملة المشاعل ولا حامل « الشوبك » ولا الفراشون ليطردوا الناس من الطريق . بل كان هذا الحاكم فى نهاية البساطة يحمل عصاه فى يد وقبعته فى اليد الأخرى

وبعد أن حيانا جلس على أقرب مقعد أمامه ، فدهش السفير من ذلك كل الدهشة لأن رجلاً كبير المقام لابد أن يجلس فى صدر المكان . ولولا أن المترجم قال لنا إن هذا هو الحاكم لاستحال علينا أن نعتقد ذلك . وزادت دهشتنا عندما علمنا أنه صاحب سفن كثيرة وأنه بطل من أبطال الحروب وأنه لا يزال محتفظاً بقوته بالرغم من أنه تجاوز السبعين .

ورأى سفيرنا — ما دام هذا هو أول حاكم انكليزى نقابله — أن يكون الأثر الذى نتركه فى نفسه جميلاً بقدر الامكان . وبذلك استجمع كل ملكاته الخطابية ليلقى أمامه أبدع ما يمكن أن يقال

وبعد أن سأله ثلاث مرات عن صحته وحالته ، وقف وطلب إلى المترجم أن ينقل أقواله إلى الانكليزية . وألقى الكلمة التالية :

« الحمد لله إذ رأينا فيك يا حاكم المدينة رجلاً غض الشباب موفور الصحة قادراً على القتال ممتعاً ، فضلاً عن مزاياك النفسية العالية بصفات تحبب فى الاقتراب منك ، فالعين لا تنصرف منك إلا إليك لجمال طلعتك ، ونحن سعداء بالوجود في حضرتك . وإن من حسن الطالع أن نتعرف بك فان رؤيتنا إياك دلتنا على أن ملك الانكليز أحسن الملوك رأياً فى اختيار الحكام ، وأن ملكاً حوله أعوان من أمثالك لجدير بصداقة فارس »

كنا ننتظر أن يرد على الخطبة بخطبة مثلها يبالغ فيها فى مدحنا . ولكنه وجم كأنه لا يستطيع الكلام . وبدت على وجهه علائم الحيرة كأنه يستنكر مدحنا إياه بما يعرف أننا لا نصدقه وإن كنا نقوله

وقد بقى السفير عدة دقائق ينتظر الرد . فلما لم يسمعه أخذ يفتل شاربيه ويدخل أصابعه فى لحيته . وأخيراً فطن الحاكم الانكليزى إلى أن السكوت لا يليق فقال : إن الجو جميل

رضى السفير بعض الرضى لأنه فهم أن الحاكم يريد أن يقول إن الجو جميل بوجودنا كما نقول نحن فى فارس إن الشمس مشرقة بوجود الضيف . ونظر كل منا إلى الآخرين

ولما انصرف الحاكم قال لنا السفير : هل

رأيتم حماراً مثل هذا ؟ إن أحد السوقة فى فارس أذكى من هذا الحاكم الانكليزى وأفصح منه لساناً . فأخذنا نطرى فصاحة سفيرنا وذلاقة لسانه وسرعة خاطره ، وقلنا إنه بيض وجوهنا ووجه الشاه الذى أحسن اختيار من يمثله فى البلاد الأجنبية . واتفقت كلمتنا على أنه ليس فى العالم كله حاكم أشد عجزاً من حاكم بلايموث

كان العشاء فى الفندق على منوال العشاء فى السفينة سوى أن الأطباق والملاعق والشوك والسكاكين كانت كلها من الفضة . فسألنا المترجم هل هذا هو منوال الحياة العادية فى الفندق أم زيد فى الاستعداد حفاوة بنا . وقلنا له إن الفنادق عندنا لا تقدم الطعام للنزلاء بها بل بجوار كل خان بدال يأخذ منه النزيل ماشاء من طعامه . على أن الطعام الذى قدم لنا هنا جدير بأن ينسى المرء ما يقال عن كرم حاتم

أكد لنا المترجم أن هذا هو منوال الحياة العادية بالفنادق وأنهم لا يقدمون لنا الطعام كرماً فهم بعداء عما نفهمه من معنى الكرم ، وأن أصحاب الفندق سيقدمون لنا عند ما نرحل عنهم قائمة بالحساب يدرج فيها ثمن كل شىء مهما كان تافهاً . وأننا إذا كسرنا لوحاً من الزجاج أو كأساً فانهم يحتسبون ثمنه علينا . وقال لنا أكثر من ذلك إنهم لا يقبلون المجادلة فى الأثمان التى يذكرونها بقوائم حسابهم ولا يصل الأمر إلى القاضى ليفصل فى النزاع على الأثمان فان كلمة أصحاب الخان مصدقة ، وأن الذى يرفض دفع ثمن ما يأكله أو أجر إقامته تصادر أمتعته ، وقد يسجن أيضاً

ولما حان وقت النوم وجد كل منا فى غرفة نومه موقداً ، ووجدنا الفراش سخناً فكدنا ننسى أننا ببلاد شديدة البرد . ولما انقضت ساعات من الليل فزعنا عند ما سمعنا صوت السفير يصيح فخرجنا لنعرف حقيقة الأمر فوجدناه فى ثياب النوم يمشى وفى يده شمعة فى الممر الذى بين الغرف وهو يلعن الفندق وأصحابه ، وجاء أصحاب الفندق وخدمه والنائمون فى الغرف الأخرى وفيهم سيدات ليروا ما ذا أصاب سفيرنا فقال جملا بعض كلماتها فارسى والبعض انكليزى معناها أنه كاد أن يموت وأنه يظن أن أصحاب الفندق يريدون قتله بشدة الحرارة التى فى غرفته

وقد تبين من جواب أصحاب الفندق أنهم عرفوا أن نزيلهم آت من بلاد حارة فأدفؤا الفراش وزادوا من حرارة المدفأة على أن يقللها هو إلى الحد الذى يريده قبل أن ينام

ولما منعنا السبب الذى يتأذى منه السفير عاد كل منا إلى غرفته وهو يفكر فى غرابة أطوار الانكليز الذين يختلط نساؤهم برجالهم حتى وهم فى ثياب النوم والذين ليست لديهم أية فكرة عما نسميه نحن بأماكن الحريم . وقد وجدنا نساءهم بالليل أقل جمالاً منهن بالنهار لأن كل واحدة منهن تضع على جبينها وخديها قطعاً صغيرة من الورق لعلها أحجبة يقصد بها إلى الوقاية من الحسد والسحر

ولقد أتعبتنا فى هذا الفندق صعوبة الحصول على الماء لأننا لا نستطيع أن نأمر الخادم باحضار ما نشاء من الماء إلى غرفة النوم للوضوء أو إلى غرفة الطعام لغسل أيدينا بل علينا أن ننتقل نحن إلى مكان الماء . ويظهر أن الماء عندهم قليل لأنهم يجعلونه فى أنابيب دقيقة بالحوائط ويفرغون منه بمقادير قليلة . وقد

حاول السائس مرة أن يأخذ مقداراً من الماء الساخن في حمام الفندق ليغسل الخيل في الاصطبل فضج أصحاب الفندق . أما فيما عدا ذلك فان فندقهم أفخم من قصور الشاه

ولكي أقرر الحقيقة يجب أن أعترف بأننا بالقياس لهم أناس في نهاية السذاجة

الفصل السادس عشر

في الطريق الى لندن

طلب إلينا المترجم أن نستعد للسفر إلى لندن ، وقد امتعض السفير من ذلك لأنه كان يتوقع أن ترسل الحكومة إلينا مندوبين يرافقوننا إلى تلك العاصمة ، وكان يظن أن تأخرها عن ذلك إلى الآن إنما يرجع إلى رغبة الوزراء الانكليز في جمع الهدايا كما حدث عندما جاء السفير الانكليزي إلى طهران

وكذلك حمل تأخرهم على أنهم يصنعون عدداً كبيراً من الرايات الفارسية ليرفعوها على طول الطريق وعرضه بين بلايموث وبين لندن

لكن المترجم قضى على كل هذه الآمال بتحديده ساعة السفر في صباح اليوم التالي. وقال إننا سنسافر في عربات عمومية تنقلنا وتنقل غيرنا ، وأن السائق لن ينتظرنا إذا طلبنا إليه الانتظار ، فيجب أن نكون متأهبين في اللحظة المحددة للسفر . وقال إن كل شيء في انكلترا بمواعيد معينة ، وإن أي عمل من الأعمال لا يتعطل بسبب التأخير ولو كان هذا التأخير صادراً من الشاه الانكليزي نفسه

ووجدنا المترجم صادقاً فيما يقول لأن العربات ما كادت تقف على باب الخان حتى نفخ السائقون في الأبواق ، فبدأنا نمشط ذقوننا وهمّ أحدنا بأن يصلي ركعتين فنفخوا في الأبواق مرة أخرى . وأنذرنا المترجم بأننا لو تأخرنا دقيقة واحدة فإن العربات تتركنا وتسير

قلت : « لماذا هذا التعجل ؟ إن الشمس ليست حارة هنا مثل بلادنا حتى يكون لكم عذر في التبكير قبل أن تشتد الحرارة »

فقال المترجم : « نحن لا تهمنا الحرارة والبرودة ولكننا نزن الزمن بأدق الموازين ولا يفرط أحدنا في لحظة من عمره »

وقال محمد بك : « وهل من التفريط في العمر أن نصلي ركعتين ؟ » فقال المترجم : « قد لا يكون ذلك من التفريط في عمرك ولكن لماذا تترك السائق في انتظارك ؟ صلِّ ألف ركعة إذا شئت واترك السائق وعربته ؟ »

عند ذلك سمعنا الأبواق تنفخ مرة أخرى وصاح السفير بنا أن نسرع ، ولعننا ولعن الساعة التي رافقناه فيها ، فتبعناه إلى الطريق

ركبت أنا والسفير والمترجم في عربة ، وسعيد ومحبوب والشركسية في عربة أخرى، وسائر أعضاء السفارة في عربة ثالثة ، وكان في كل عربة من هذه العربات مسافرون آخرون

وكان بجانبي فتاة إنكليزية سافرة الوجه لم تتحرج من ملامسة جسمي لجسمها مع اختلاف ديننا كما نتحرج نحن من ملامسة اليهود . ويظهر أن من صفات الانكليز أنهم لا يعرفون الطهارة والنجاسة في الآدميين فهم يمسكون بيد اليهودي ثم لا يرون ضرورة للاستحمام كأنهم يمسكون بيد واحد من أنفسهم . على أن هذا في الحقيقة لا يدعو إلى الدهشة ما دام القوم يأكلون لحم الخنزير

وإذا كنا نمتاز عن الانكليز فى كل شىء فانهم بغير ريب يمتازون عنا فى صنع هذه العربات لأن « التختروان » عندنا وهو « هودج » يحمل بين فرسين لا يمكن أن يكون كالعربة ، فهو دائماً يرتج ويهتز بعكس العربة التى يمكن أن يشرب فيها المرء فنجاناً من القهوة دون أن تسقط قطرة منه على ثيابه. بل يستطيع أن يقف فيها ويصلى ويستطيع أن يدخن فى النرجيلة وأن يتناول الغداء وقد فكرت فى إدخال صناعة العربات بالبلاد الفارسية عندما أعود إليها

وقد عجبت من نظافة الشوارع ، فليس بها قطع من الأحجار ولا أكوام من الأقذار وهى مغسولة كأن الجن قاموا بتنظيفها فى الليل ، ومثل هذه النظافة لا تكون فى بلادنا إلا فى الطريق الذى يسلكه الشاه فى يوم الجمعة للصلاة . وأخذ بعضنا يسائل البعض هل أعد ذلك خصيصاً لنا ، فأخبرنا المترجم بأن هذه هي حالة الشوارع كل يوم

وقد صدقناه لأننا لم نر علامة على الاحتفاء بنا، فالناس هنا ينظرون إليه ويضحكون منه مع أن الفارسيين كانوا يأمر الشاه بركعون عند رؤية السفير الانكليزى

استرحنا فى أثناء الطريق بخان لنتناول فيه الغداء ، وقد دهشنا إذ أخبرنا المترجم بأن المسافة التى قطعناها هى ثلاثون فرسخاً وهى مسافة نقطعها فى فارس فى أربعة أيام . ولكن سرعة العربات البخارية فى انجلترا لا يكاد يتصورها عقل الفارسى فى بلاده

ووجدنا السوق فى القرية التى تغدينا بها خالياً من المحتسب ، والمشترون على أتم اتفاق مع البائعين

الفصل السابع عشر

مدينة الحمام

استأنفنا السير فوصلنا إلى مدينة (باث) ومعنى هذه الكلمة باللغة الإنكليزية هو (الحمّام) فاسم المدينة إذن هو مدينة الحمام لأن بها حمامات كثيرة ليست تشبه حمامات الماء الساخن عندنا ولكنها آتية من ينابيع يقولون إنها معدنية . وهم يقولون إنها تشفى من الأمراض مثل مياه بروسه بالقرب من الآستانة . وكان السفير يشكو وجعاً فى الظهر فأشاروا عليه بالاستحمام فى هذا الماء؛ فلما قبل قادونا إلى بحيرة ينزل فى مائها الرجال والنساء معاً .

ولقد كانت مشاهدة الحمامات الانكليزية سبباً فى إثارة المناقشة بين السفير وبين المترجم فى موضوع النظافة والطهارة عند الفارسيين وعند الانكليز. فالفريق الأخير لا يعرف الطاهر والنجس ولكنه يعرف النظيف والقذر . فالخمر عند الانكليز طاهرة لأنها نظيفة ، والماء لا يكون عندهم طاهراً إذا لم يكن نظيفاً . وقد غضب السفير فى نهاية هذا الحديث وقال : « أنتم قوم لا يحق لكم التكلم عن النظافة مادمتم تأكلون لحم الخنزير ، وكل الحمامات التى فى العالم لن تطهركم من نجاسته »

فقال المترجم « لا تكثر من الكلام فى هذا الموضوع فانك ستأكل من لحم الخنزير قبل أن تغادر هذه البلاد، ولن يكون فى وسعك أن تميز بينه وبين اللحوم الأخرى »

وبعد الاستحمام بهذه المدينة استأنفنا السفر إلى العاصمة وقد وجدنا عند بابها عربتين من عربات الشاه الإنكليزى فى انتظارنا كما وجدنا اثنين من

موظفى قصره ، فركبنا إلى المكان الذى خصص للسفارة

وقد سرّ السفير من إرسال هذين المندوبين وانتظر إجراء حفلة استقباله فى صباح الغد . ولذلك أعدّ ملابس الحفلة والخنجر ذا المقبض المرصع بالجواهر ليضعه فى حزامه والقلبق الذى عليه الريشة المجوهرة

وقد لاحظت أن الإنكليزيات لم ينفرن من النظر إلى عيوننا السوداء ووجوهنا المستديرة ، ولذلك حرصت على نظافة ثيابى وجمال منظرى ، وارتديت « الطقم » وهو أجمل ثوب عندى ومشطت شعرى وجعدت خصلة طويلة منه وراء أذنى وهذه الخصلة يسمونها بالسالفة في فارس ، وهى من لوازم الأناقة ...

حلق لنا « فريدون » وساوى ذقوننا ، وجىء للشركسية بثوب جديد من ثياب الفرنجستانيين ولكن تفصيله على الطراز الفارسي

وأفهمنا المترجم أننا سنتبع فى الاستقبال عادات بلادنا فنمشى على مهل شديد ونلقي خطباً طويلة كثيرة وأنه سيقدمنا فى الطريق بعض الأتباع ليطردوا الناس من أمامنا ، وطلبنا إليه إفهام السلطات الإنكليزية ذلك

ومما رأينا فى لندن ولم نكن نتوقعه أن على حوانيتها « لوحات » كثيرة لا شك أنها من مأثور القول عندهم . وعزمت عند ما أتعلم اللغة الإنكليزية على استظهار هذه الأقوال لكى أتمثل بها فى كلامى

ولكن المترجم قال لى فيما بعد إن هذه ليست أقوالاً حكيمة وإنها عنوانات للحوانيت التى هى معلقة عليها . فعجبت من ذلك وقلت إنهم لم يعلقوها على كل حال إلا مباهاة بحسن خطها وإلا فأية فائدة من تعليق العنوان ؟

وأدهشتنا من هذه المدينة كثرة المارة فى شوارعها فانها فى أيامها العادية أشد زحاماً من الأسواق عندنا فى أيام المواسم . ولولا ما شهدناه من قلة اهتمام الناس بنا لقلنا إن أهل المدينة خرجوا لاستقبالنا كما خرج كل أهل طهران ليروا السفير الانكليزى يوم وصوله . قال السفير للمترجم : إنى لقلة ما أرى من مظاهر الحفاوة لا أكاد أصدق أننى سفير من حقه الاكرام فانكم تدخلون بى البلد خفية كأننى بضاعة مهربة . فنقل المترجم هذه الملاحظة إلى الموظفين الانكليزيين فلم يفهما فى بادئ الأمر ماالذي يريده السفير لجهلهما بعوائد الفارسيين ؛ فلما أفهمهما المترجم قالا إن هذه هى عوائد البلاد وإن السفير الفارسى يقابل كأى سفير آخر

قال فيروزخان : « إذا كانت هذه هي عوائدكم فأقسم إنها عوائد سيئة فإنه لا فرق عندكم بين استقبال سفير وبين استقبال امرأة عجوز . ثم نظر إلىّ وقال : « أقسم يا حاجى بابا أننى لو كنت أتوقع ذلك لما قبلت أن أكون سفيراً . لقد كان حلق لحيتى أهون علىّ من مغادرة بلادى والعيشة بين الكفار . ولا بدّ لى من الانتقام من رئيس الوزارة الذى بعث بى إلى هذه البلاد حيث لا نقام حفلة الاستقبال . وإذا لم أنتقم منه فانى غير جدير إذن باسم فيروزخان

وجم الموظفان الانكليزيان وقد أزعجتهما هذه اللهجة التى يتكلم بها السفير . وفى أثناء مرورنا بالعربة أشار أحدهما إلى حديقة وقال إن هذه الحديقة إحدي متنزهاتنا العامة . فقال السفير بلهجة دالة

على الغضب : « أغلقوا النافذة فانى لا أريد أن يرانا أحد فيزداد افتضاحنا »

فلم يسع الانكليز غير الصمت

الفصل الثامن عشر

دار السفارة

نزل السفير إلى الدار المخصصة للسفارة فلم يقدم إليه أحد هدية ولم يرحب به أحد . فعلت وجهه مسحة من اليأس . وقال إن الشاه أمره بان يبيض وجهه فى هذه البلاد ، ولكنه سود وجهه ووجه الفارسيين جميعاً . وقدم له المترجم طعاماً فأبى أن يأكله ، وقال إنه لن يأكل الخبز والملح مع الانكليز حتى يأتى مندوب من قبل الشاه الانكليزى ليقول له الحمد لله على سلامتك

قال المترجم : « ولكن ألا تريد أن تعتبر لمجىء المندوبين الانكليزيين أية قيمة ؟ فقال السفير : « لا تقل لى ذلك فأنت نفسك حضرت حفلة استقبال السفير الانكليزى فى طهران . إنكم سودتم وجهى وسودتم وجه حكومتكم أيضاً والحمد لله على ذلك »

ولما رأيناه على هذه الحال تركناه . واستأذن المترجم الانكليزى كذلك فى الذهاب . وكان المترجم فى الأيام الأخيرة يتغيّب عنا أحياناً ليرافق رجلاً جميل الثياب ظاهر الوجاهة كان يقيم أمامنا . وقال لنا الطباخ إنه جاء مرة مع المترجم الى دارنا . وكان الطباخ مريضاً فوصف له دواء شفاه فى الحال

اعتقدنا من ذلك أنه طبيب . وفى عصر ذلك اليوم عاد إلينا مع المترجم فخرجنا إليه مادين أيدينا ليجس نبضنا مخرجين ألسنتنا ليرى لونها ، فلما رآنا المترجم كذلك استغرق فى الضحك وسألنا لماذا نفعل ذلك ؟ فقلت لأن صاحبه طبيب ، وقال الطباخ نعم وقد شفانى

قال المترجم إنه ليس طبيباً ولكنه عمى . فقلت ما معنى ذلك ؟ هل هناك ما يمنع الجمع بين كونه طبيباً وبين كونه عمك

قال : « هو على كل حال ليس طبيباً ولكنه لورد وهو من رجال السيف ولم يعالج قط صناعة الطب »

وقال الطباخ : « وكيف نميز الآن بين أطبائكم وبين اللوردات ؟ »

حار المترجم فى الاجابة على هذا السؤال . والحقيقة أن الناس متشابهون فى هذه البلاد على اختلاف أعمالهم ودرجاتهم حتى الخدم والكناسون يلبسون ثياباً كالتى يلبسها الأعيان والوجهاء . وقد هالنا اتحاد المناظر فصممنا على أن نعتصم بحبل الصبر ونفتح عيون الدهشة فى وجوه الجدة

ثم نظرنا إلى القصر الذى خصصه الشاه الانكليزى لسكنى السفارة الفارسية فقلنا إن هذا القصر لا بد أن يكون مغتصباً من أحد اللوردات لأن . أى إنسان لا يسمح باعطاء مكان مثله عن طيب خاطر . وإنه ليخيل لى أن الأثاث أغلى كثيراً من البناء . وقد سألنا المترجم عمن قدم هذا القصر فقال إنه اللورد أمين الخزانة . ولست أستطيع أن أصف الأثاث قطعة قطعة ، فان كل جزء منه يحتاج فى وصفه إلى مجلد ضخم ، فالأسرة والسجاجيد وأدوات الزينة والدواليب والكراسى ، كل ذلك مما لا تقع العين على مثله . وهناك أشياء كثيرة جداً لا نعلم فائدتها ولا كيفية استعمالها

ولقد كانت الكراسى ذات أشكال مختلفة

عجيبة فبعضها له جانب واحد والبعض له جانبان والبعض ثلاثة جوانب . وبعض الكراسى ذو ظهر يصل إلى الرأس والبعض لاظهر له . أو له ظهر قصير

وهناك مناضد خاصة بالأكل وأخرى خاصة بالكتابة وأخرى للحلاقة وغيرها لغسل الوجه . وكذلك الغرف مقسمة إلى أقسام، فالذى يأكل في غرفة النوم يكون قد أتي بأمر منكر وكذلك الذى يغتسل فى غرفة النوم .

وقد حار السفير فى تخصيص مكان لجاريته الشركسية .

وعلى ذكر الشركسية أقول إننا استكشفنا أخيراً أن بعض السيدات الإنكليزيات يضمن على وجوههن نوعاً من البراقع ولكنه لايحول دون رؤية الوجه بل يقى من الغبار فقط .

وقد أتعبنا فى قصر السفارة أننا لانستطيع الاستقرار فى مكان، فاذا أردنا أن نأكل انتقلنا إلى الطابق الأرضى ، وإذا أردنا أن ننام انتقلنا إلى الطابق الأعلى ، وإذا أردنا أن نعمل أو نستريح انتقلنا إلى الطابق الأوسط . وقد استنتج محمد بك أن أرض بلاد الانكليز قليلة المساحة جداً ولذلك يبنون بيوتهم من عدة طبقات، على العكس من الحال فى فارس فان أرضنا واسعة ومن أجل ذلك نبنى بيوتنا من دور واحد

وقد علمنا أكثر من ذلك أنه ليس فى انكلترا أرض زراعية ، وهذا يدل على شدة ضيق بلادهم فانهم يبنون البيوت حيث كان يجب أن تكون المزارع . وللملكية المنازل عندهم نظام غريب فهي تنتقل بالميراث إلى الابن الأكبر ولا تقسم بين الورثة ، ولعل ذلك لضمان إصلاح المنازل وترميمها لأنه عندما يتعدد الشركاء فى المنزل الواحد يتشاجرون ويتركونه بغير إصلاح . . أما الثياب والأموال فانهم يقسمونها بين الورثة فهم لا يحرصون على بقائها حرصهم على البيوت لضيق أرضهم

« يتبع »

عبد اللطيف النشار

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾